المنهج النبوي في التعامل مع التحولات النفسية في مرحلة منتصف العُمر (دراسة حديثية موضوعية)

The Prophetic Method in Dealing with Psychological Changes in Midlife
A Thematic Hadith Study

إعداد

Prepared by

د. نوف بنت فهد آل سليمان القحطاني

- أستاذ مساعد السنة وعلومها

Dr. Nouf bint Fahd Al - Sulaiman Al - Qahtani -

Assistant Professor of Sunnah and Its Sciences

قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

Department of Islamic Studies, College of Education

جامعة الملك سعود

King Saud University

noufff@ksu.edu.sa

Journal of Islamic Sciences
Vol.2 | Issue 43
ISSN: 2225-9732
August 2026
مجلة العلوم الإسلامية
المجلد 2 | العدد 43
www.isscj.edu.iq

الملخص

يتناول هذا البحث المعنون ب «المنهج النبوي في التعامل مع التحولات النفسية في مرحلة منتصف العمر - دراسة حديثية موضوعية»، بيان الأسس الشرعية التي أقامت عليها السنة النبوية ميزان التفاضل بين البشر، في سياقٍ يعالج التصورات الخاطئة التي شاعت في تقدير الناس بعضهم لبعض، ويعيد توجيهها إلى المعايير الربانية القائمة على الإيمان والعمل الصالح، وقد سعى البحث إلى إبراز المنهج النبوي في تقويم هذا المفهوم من خلال النصوص الحديثية الجامعة، مع تحليل دلالاتها واستنباط ما تضمنته من قواعد كلية تضبط حركة الفرد والمجتمع. واعتمد البحث المنهج الاستقرائي في جمع النصوص المتعلقة بموضوع التفاضل، والمنهج التحليلي في دراستها وبيان معانيها، مع الاستفادة من أقوال شُرّاح الحديث وأهل العلم في توجيهها وتقعيدها، يقوم هيكل البحث على مقدمة تمهيدية تتناول أهمية الموضوع وأهدافه ومشكلته ومنهجه وحدوده والدراسات السابقة وخطته، ثم أربعة مباحث رئيسة؛ يختص الأول بتأصيل القيمة الإنسانية في ضوء حديث النظر إلى القلوب والأعمال ونقد مركزية المظهر والعمر، بينما يعالج الثاني مفهوم العمر ومعيار التفاضل بين الناس في ضوء السنة النبوية، ويتناول الثالث ضبط حب الظهور والرياء وأثره النفسي في ضوء الحديث النبوي، أما الرابع فيبحث استمرارية العمل والمعنى عبر المراحل العمرية وأثره في التوازن النفسي، وينتهي البحث بخاتمة تتضمن أبرز النتائج والتوصيات، يعقبها قائمة المصادر والمراجع.

وقد خلص البحث إلى أن السنة النبوية قد قررت ميزانًا عادلًا للتفاضل يقوم على التقوى والعمل الصالح، ويتجلى في السلوك العملي القائم على الإحسان والتكافل وطلب العلم، وأن العلاقة بين العمل والجزاء علاقة مطردة يحكمها مبدأ: الجزاء من جنس العمل. كما أكدت النتائج أن النسب لا يُغني عن صاحبه شيئًا مع التقصير، وأن التفاضل الحقيقي إنما يتحقق بصدق العبودية لله تعالى. وبذلك يبرز المنهج النبوي في بناء مجتمعٍ متوازنٍ قائمٍ على العدالة والمساواة، تُلغى فيه الامتيازات الوهمية، ويُرفع فيه.

الكلمات المفتاحية: المنهج النبوي - التحولات النفسية - منتصف العمر - دراسة حديثية موضوعية .

Abstract:

This study, entitled "The Prophetic Method in Dealing with Psychological Changes in Midlife: A Thematic Hadith Study," examines the normative foundations established in the Prophetic tradition for evaluating human worth, within a framework that addresses widespread misconceptions about how people assess one another and redirects these perceptions toward divinely grounded criteria based on faith and righteous action. The study seeks to highlight the Prophetic methodology in correcting these notions through hadith texts, analyzing their meanings and deriving the comprehensive principles that regulate both individual and social conduct.

The research adopts an inductive approach in collecting relevant hadith texts related to the concept of human distinction, alongside an analytical method in examining their meanings. It also draws upon the interpretations of hadith commentators and scholars to clarify and systematize these principles.

The structure of the study includes an introductory section covering the importance of the topic, its objectives, research problem, methodology, scope, previous studies, and plan, followed by four main sections. The first section establishes the concept of human value in light of the hadith concerning divine consideration of hearts and deeds, while critiquing the centrality of outward appearance and age. The second section examines the concept of age and the criteria for human distinction according to the Prophetic tradition. The third addresses the regulation of the desire for recognition and ostentation and their psychological effects in light of hadith. The fourth explores continuity of righteous action and meaningful engagement across stages of life and their role in achieving psychological balance. The study concludes with a summary of key findings and recommendations, followed by a list of sources and references.

The study concludes that the Prophetic tradition establishes a just for human distinction based on piety and righteous action, manifested in practical conduct grounded in

excellence, social solidarity, and the pursuit of knowledge. It affirms that the relationship between action and recompense is consistent, governed by the principle that recompense corresponds to the nature of one's deeds. The findings also confirm that lineage does not avail its possessor in the presence of negligence, and that true distinction is achieved through sincere devotion to Allah. Thus, the Prophetic methodology emerges as a framework for building a balanced society founded on justice and equality, in which illusory privileges are eliminated.

Keywords: Prophetic Method – Psychological Changes – Midlife – Thematic Hadith Study

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي علم الإنسان ما لم يعلم، وهداه في قوله الحق وشرعه، وجعل له العقل أداة للتمييز بين الحق والباطل، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد ﷺ، الذي بعثه الله رحمةً للعالمين، وأتم به مكارم الأخلاق، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛

فإن مرحلة منتصف العمر تُعدُّ من المراحل المفصلية في حياة الإنسان، لما تشهده من تحولات متداخلة نفسية واجتماعية وجسدية، تُعيد تشكيل نظرة الفرد إلى ذاته، وتقويمه لإنجازاته، وتوقعاته لما بقي من عمره. وتبرز في هذه المرحلة جملة من الإشكالات المعنوية، كالتردد بين الرضا والطموح، والتأرجح بين المعنى والفراغ، والتطلع إلى التقدير مقابل الخشية من التراجع، وهي تحولات لا يمكن تفسيرها تفسيرًا مجردًا عن البعد الإيماني والقيمي الذي تُقرره النصوص الشرعية.

وفي هذا السياق، تُقدِّم السنة النبوية تصورًا متكاملًا لضبط هذه التحولات، قائمًا على إعادة بناء معيار القيمة الإنسانية على أساس صلاح القلب والعمل، وتحرير مفهوم العمر من التصورات المادية المجردة، وتقويم نوازع حب الظهور والبحث عن التقدير، وربط الإنسان بالمعنى المستمر من خلال العمل الصالح. وهذه الأصول لا ترد في السنة على سبيل الوعظ المجرد، بل في إطار قواعد كلية وتوجيهات عملية قابلة للاستنباط والتأصيل.

ومن هنا، تأتي هذه الدراسة بوصفها دراسة حديثية موضوعية تأصيلية، تسعى إلى جمع النصوص النبوية المتعلقة بهذه الجوانب، وتحليلها في ضوء المنهج النبوي، واستنباط ما تتضمنه من ضوابط تُسهم في بناء تصور منضبط للتحولات النفسية في منتصف العمر، بعيدًا عن الإسقاطات المعاصرة غير المؤصلة، أو التفسيرات النفسية المجتزأة عن سياقها القيمي.

أهمية البحث وأسباب اختياره:

تنبع أهمية هذا البحث من كونه يُعالج موضوعًا معاصرًا يمس شريحة واسعة من المجتمع، من خلال منهج حديثي تأصيلي يُعيد ربط التحليل النفسي بالأصول الشرعية، ويُبرز قدرة السنة

النبوية على تقديم معالجات متوازنة للتحولات الداخلية للإنسان . كما تتجلى أهميته في:

* إبراز المعايير النبوية في تقويم القيمة الإنسانية، بعيدًا عن المقاييس العمرية أو المظهرية.
* تقديم معالجة علمية لضبط مفاهيم التقدم في العمر وما يصاحبه من تحولات نفسية.
* الإسهام في بناء نموذج تأصيلي يُمكن الإفادة منه في الدراسات التربوية والنفسية ذات المرجعية الإسلامية.

وقد اختير هذا الموضوع نظرًا لقلّة الدراسات الحديثية الموضوعية التي تناولت هذه المرحلة العمرية معالجةً مستقلة قائمة على النصوص النبوية وتحليلها.

مشكلة البحث:

تتمثل مشكلة البحث في غياب دراسات حديثية موضوعية تعالج التحولات النفسية في منتصف العمر وفق السنة النبوية، مع اعتماد كثير من المعالجات النفسية على التفسيرات غير المؤصلة شرعا. لذلك يهدف البحث إلى استنباط ضوابط نبويّة واضحة تساعد على التعامل مع هذه المرحلة، وضبط القلب والعمل والمعنى لتحقيق التوازن النفسي.

أهداف البحث:

١ - بيان التصور النبوي للقيمة الإنسانية وضبطها بمعايير القلب والعمل.

٢ - تصحيح المفاهيم المرتبطة بالتقدم في العمر في ضوء السنة النبوية.

٣ - إبراز الضوابط الأخلاقية التي وضعتها السنة النبوية لتهذيب حب الظهور والبحث عن التقدير.

٤ - توضيح دور العمل والمعنى في تحقيق التوازن النفسي والاستقرار الداخلي في مرحلة منتصف العمر.

٥ - الإسهام في تقديم معالجة تأصيلية منضبطة للتحولات النفسية بعيدًا عن التبرير أو الإسقاط المعاصر المباشر.

أسئلة البحث:

١ – ما التصور النبوي للقيمة الإنسانية وضبطها بمعايير القلب والعمل ؟

٢ – ما طبيعة المفاهيم المرتبطة بالتقدم في العمر في ضوء السنة النبوية ؟

٣ – ما الضوابط الأخلاقية التي وضعتها السنة النبوية لتهذيب حب الظهور والبحث عن التقدير ؟

٤ – ما دور العمل والمعنى في تحقيق التوازن النفسي والاستقرار الداخلي في مرحلة منتصف العمر ؟

٥ – كيف نقدم معالجة تأصيلية منضبطة للتحولات النفسية بعيدًا عن التبرير أو الإسقاط المعاصر ؟

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الحديثي الموضوعي التأصيلي، حيث يجمع الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة ذات الصلة بالتحولات النفسية في منتصف العمر، ثم يقوم بتحليلها ودراستها دلاليًا وموضوعيًا لاستخلاص الضوابط النبوية العملية والمعنوية للتعامل مع هذه المرحلة العمرية، مع مراعاة قواعد التخريج والحكم على الأحاديث والاستفادة من شروح المحدثين في توجيه الدلالات..

إجراءات البحث:

تمثلت إجراءات البحث في تحديد مجموعة من الأحاديث الجامعة ذات الصلة بالموضوع، وتصنيفها ضمن المحاور الأربع للدراسة، ثم استخراج الدلالات العقدية والأخلاقية والنفسية منها، وربطها بالتحولات النفسية في منتصف العمر وفق سياقها النبوي والتربوي.

حدود البحث:

الحد الموضوعي: يقتصر البحث على دراسة التحولات النفسية في منتصف العمر من خلال أربعة محاور تأصيلية في السنة النبوية، دون التوسع في الدراسات النفسية التجريبية.

الحد النصي: يركز البحث على عدد محدد من الأحاديث النبوية الجامعة، مع الاستئناس ببعض الشواهد عند الحاجة.

الحد المنهجي: يلتزم البحث بالمعالجة الحديثية التأصيلية، دون الخوض في نقد الخطاب الإعلامي أو المعالجات المعاصرة التفصيلية.

الدراسات السابقة:

تُشير الدراسات الحديثية إلى أن معيار النظر الإلهي في الحديث: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسامكم...» هو القلب والعمل لا المظاهر، وهو ما يوفر قاعدة لفهم التحولات النفسية في منتصف العمر. وقد تناولت بعض الشروحات والتحليلات التربوية الحديثية دور السنة النبوية في ضبط حب الظهور وتحقيق التوازن النفسي عبر العمل والمعنى. ومع ذلك، لم أعثر –في

حدود إطلاع الباحثة - على دراسة حديثية موضوعية مستقلة تعالج هذا الموضوع من زاوية تأصيلية حديثية.

خطة البحث:

المقدمة: وفيها: أهمية البحث وأسباب اختياره، ومشكلته، وأهدافه، وأسئلته، ومنهجه وإجراءاته، وحدوده، والدراسات السابقة، وخطة البحث .

المبحث الأول: ضبط القيمة الإنسانية في ضوء حديث: «إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلا إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»، وفيه:

المطلب الأول: مفهوم القيمة الإنسانية في التصور الإسلامي.

المطلب الثاني: نقض مركزية المظهر والمرحلة العمرية في ضوء الحديث النبوي.

المبحث الثاني: العمر بين النقص والزيادة في ضوء حديث: »خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ»، وفيه:

المطلب الأول: التصورات البشرية للعمر وأثرها النفسي.

المطلب الثاني: معيار التفاضل بين الناس في ضوء السنة النبوية.

المبحث الثالث: ضبط حب الظهور والبحث عن التقدير في ضوء حديث: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»، وفيه:

المطلب الأول: حب الظهور بين الفطرة والانحراف.

المطلب الثاني: الضبط النبوي لحب الظهور وأثره في التوازن النفسي.

المبحث الرابع: العمل والمعنى واستمراريتهما في جميع المراحل العمرية وأثرهما في مرحلة منتصف العمر، في ضوء حديث: «إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمُ الْفَسِيلَةُ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»، وفيه:

المطلب الأول: فراغ المعنى وأثره في التحولات النفسية.

المطلب الثاني: الاستمرار في العمل بوصفه علاجًا نبويًا.

الخاتمة: النتائج والتوصيات.

ثم المصادر والمراجع .

المبحث الأول: ضبط القيمة الإنسانية في ضوء حديث: «إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلا إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ».

وفيه:

المطلب الأول: مفهوم القيمة الإنسانية في التصور الإسلامي:

تعريف القيم الإنسانية لغة واصطلاحًا:

مفهوم القيم في اللغة: إن جمع، مفردة القيمة، وأصلها الواو، لأنه يقوم مقام الشيء والاستقامة والاعتدال يقال: استقام له الأمر كقوله (دينا قيما)(١)، ويراد بها الثمن الذي يعادل المتاع، ودرجة الأهمية النسبية له والقيم جمع مفردها القيمة(٢)، والقيمة: واحدة القيم، وأصله الواو، لأنه يقوم مقام الشيء(٣)، والقيمة ثمن الشيء بالتقويم، تقول: تقاوموه فيما بينهم، وإذا انقاد الشيء واستمرت طريقته فقد استقام لوجهه، ويقال: كم قامت ناقتك ؟ أي كم بلغت(٤)، وفي الحديث أن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله الله أن لا أخر إلا قائما، قال له النبي: أما من قبلنا فلا تخر إلا قائماً)(٥)، أي: لسنا ندعوك ولا نبايعك إلا قائما، أي: على الحق، قال أبو عبيد: معناه بايعت أن لا أموت إلا ثابتا على الإسلام والتمسك به، وكل من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائم عليه(٦).

- ومما سبق تبين أن المراد من لفظ القيم تتضمن المعاني الآتية(٧):

· الاستقامة: وفي هذا السياق يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

(١) ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: المرتضى الزبيدي، (٣٣ / ٣١٢)، القاموس المحيط: الفيروزآبادي (ص١١٥٢).
(٢) المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، (٨ / ٢٣٦) .
(٣) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، (٥ / ٣٧٨٢).
(٤) المرجع السابق، (٧ / ٥٤٧).
(٥) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، (٧ / ٣٩٨).
(٦) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، (٥ / ٣٧٨٢)، وما بعدها قال البغوي والمراد من القيام التمسك بالدين، قال الله سبحانه وتعالى: (ومن أهل الكتب أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ وَايَاتِ اللَّهِ) (آل عمران: (١١٣)، ومعناه: المواظبة على الدين، والقيام به. شرح السنة: البغوي، (١ / ١٠٦).
(٧) ينظر: القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين وسبل توظيفها في التعليم المدرسي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية الجامعة الإسلامية غزة: سماهر الأسطل، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م): (١٩).

· القيمة: كقوله سبحانه وتعالى: ﴿فِيهَا كُتُبَ قَيِّمَةٌ﴾ [البيئة: ٣].

· الثبات، والدوام.

· الثمن والتقدير: وذلك حين نحدد ثمن السلعة ونقدرها [١].

مفهوم القيم في الاصطلاح: هي مجموعة معايير وأحكام منظمة للسلوك الإنساني، ناجمة من القرآن الكريم والسنة النبوية ثابتة لحماية المقاصد الشرعية، مؤثرة على اتجاهات ورغبات و اهتمامات الفرد والمجتمع[٢]، وتعرف بأنها مجموعة المعايير المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية والتي أمر الإسلام بالالتزام بها وأصبحت محل اعتقاد واتفاق لدى المسلمين لأحكامهم في كل ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال تنظم علاقتهم بالله تعالى وبالكون والمجتمع وبالإنسانية جمعاء[٣]، وعرفوها بأنها مبادئ وقواعد منظمة للسلوك الإنساني مستمدة من القرآن والسنة يسير عليها الفرد فتحدد اتجاهاته وميوله، وتضبط سلوكه لتوجهه للخير والفضيلة، وتعينه على التكيف مع الغير، فتستقيم من خلالها حياته، وتتزن شخصيته، ويحسن تعامله مع مجتمعه على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه [٤].

وعُرِّفت بأنها: معيار لمعرفة الصالح من الفاسد، وهي تختص بالحياة الإنسانية بالذات ولا يعرفها الحيوان وأنها صفات ومعاني قد تكون فكرية أو سلوكية، وهي ذاتية وثابتة ومطلقة، لا تتغير باختلاف من يصدر الحكم عليه[٥]، كما عرفت بأنها: الصفة التي تجعل من الشيء أمرا مرغوبا فيه ومطلوبا في المجتمع، وهي مثل عليا وانفعالات من الانسان نحو غايات يصنعها بحرية، وهي بذلك جزء واسع من علم الأخلاق والفلسفة السياسية[٦].

وعُرِّفت أيضا بأنها: مجموعة من المعايير والأحكام، تتكون لدى الفرد من خلال تفاعله مع المواقف والخبرات الفردية والاجتماعية، بحيث تمكنه من اختيار أهداف وتوجهات لحياته،

(١) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي التهانوي (٢ / ١٣٥٦).

(٢) القيم المستنبطة من قصص الأنبياء في القرآن الكريم: الشريف كوثر محمد رضا، (ص٣١).

(٣) موسوعة نضرة النعيم في مكارم واخلاق الرسول الكريم صالح حميد عبدالله عبد الرحمن ملوح، ١٤٢٤ (ص٨٠).

(٤) القيم المستنبطة من قصص الأنبياء في القرآن الكريم الشريف كوثر محمد رضا، (ص٣١)، موسوعة نضرة النعيم في مكارم واخلاق الرسول الكريم: صالح حميد عبد الله عبد الرحمن ملوح، (ص٢٥) .

(٥) القيم بين الإسلام والغرب: مانع بن محمد بن علي المانع، (١ / ١٥).

(٦) ينظر: معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: د. نوال كريم زرزور، (ص١١)

يراها جديرة بتوظيف إمكانياته، وتجسد خلال الاهتمامات، أو الاتجاهات أو السلوك العملي أو اللفظي بطريقة مباشرة وغير مباشرة(١).

كما تعرف بأنها: «مجموعة من الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكاملة قادرة على التعامل الحي مع المجتمع، وعلى التوافق مع أعضائه، وعلى العمل من أجل النفس، والأسرة، والعقيدة (٢).

والقيم أيضًا هي: حكم يصدره الإنسان على شيء ما مهتديًا بمجموعة من المبادئ والمعايير التي ارتضاها الشرع، محددًا المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك، فمدلول القيم الإسلامية يتحدد برؤية الإسلام وتصوراته المعرفية والوجدانية والسلوكية، كما أن القيم في الإسلام ترتبط ارتباطا وثيقا بالعقيدة والشريعة الإسلامية (٣).

من خلال هذه التعاريف يمكن أن نخلص أيضاً إلى مجموعة من الخصائص التي تميز القيم الإسلامية والتي تضاف إلى الخصائص العامة للقيم التي سبق ذكرها، أي: الغائية، والقابلية للمقارنة، والتراتبية، ومن بين أهم تلك الخصائص: كون القيم الإسلامية قيماً فطرية متى عُرضت على العقول تلقتها بالقبول، كما أنها قيم شاملة لجميع مجالات الفعل الإنساني طالما أن مرجعيتها شاملة كذلك لجميع مناحي الحياة الإنسانية، يضاف إلى ذلك أنها قيم مرتبطة بالعمل رغم كونها من حيث هي معايير عقلية عامة تتميز بخاصية التجريد الذي تتميز به القيم عامة، وتمنح هذه الخاصية الأخيرة سبب وجودها من طبيعة الرسالة الإسلامية التي يتعانق فيها العلم بالعمل بشكل وثيق لا انفصام فيه.

وقد أجاز مجمع اللغة المصري الاستعمال المعاصر لها بمعنى الفضائل التي تقوم عليها حياة المجتمع الإنساني، ولما كان وزن الأمة مرتبطاً بما فيها من فضائل صارت لها سجايا ثابتة لا تتغير، فإن العلاقة قائمة بين المعنيين القديم والحديث(٤).

(١) القيم الإسلامية والتربوية: علي أبو العينين، (ص٣٤).
(٢) المدخل إلى القيم الإسلامية جابر قمحية، (ص ٤١).
(٣) ينظر: غرس القيم وتنميتها في السنة النبوية باستخدام طريقة حل المشكلات، الحنبرجي، محمد عبد الكريم محمد صابر، (ص ١٣).
(٤) ينظر: معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي: الدكتور أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل - (١ / ٦١١).

اتضح مما سبق أن القيم الإسلامية انها منظومة متكامل مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وأن هذه القيم مصادرها ربانية تنظم علاقته بخالقه جل شأنه، كما انها تنظم علاقاته بالمجتمع وغيره من سائر المخلوقات وعلاقته بالكون، وفي النهاية تفضي إلى الاستقرار المجتمعي والسعادة في الدارين، ومفهوم التصور الإسلامي في أدبياتنا المعاصرة أشبه بمفهوم المذهبية الإسلامية، والتي تعني كل ما ذهب إليه الإسلام في أمور الكون، والإنسان، والحياة(١).

المطلب الثاني: نقض مركزية المظهر والمرحلة العمرية في ضوء الحديث النبوي:

تُعدّ النزعة إلى تقييم الإنسان بناءً على مظهره الخارجي أو مرحلته العمرية من الظواهر الشائعة في المجتمعات البشرية، حيث تُمنح المكانة أحيانًا للهيئة أو السنّ دون اعتبارٍ كافٍ للمعايير الحقيقية للتفاضل. وقد جاء المنهج النبوي ليقوّض هذه المركزية، ويعيد بناء معيار القيمة الإنسانية على أسسٍ موضوعية تقوم على الإيمان والعمل الصالح، لا على الصور الظاهرة أو الاعتبارات العمرية.

أولًا: نقض مركزية المظهر الخارجي:

قرّر النبي ﷺ مبدأً حاسمًا في هذا الباب بقوله: عن أبي هريرة عبدالرحمن بن صخر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢)، هذا الحديثُ يضعُ معيارًا بديلًا للتقويم، حيث ينقلُ مركزَ الثِّقلِ من الظاهرِ إلى الباطن، ومن الشكلِ إلى الجوهر، بما يؤسس لرؤيةٍ أخلاقية تُعلي من قيمةِ الإخلاصِ والعمل، وتُبطلُ الاعتدادَ بالمظاهر، ومن ثم، فإنَّ الانشغالَ بالمظهرِ بوصفِه معيارًا للتفاضل يُعَدُّ انحرافًا عن الميزان النبوي؛ إذ إنَّ صلاح القلب هو أساسُ قبول العمل، ولا يُعتبَرُ العمل إلا إذا كان صادرًا عن نية خالصةٍ لوجهِ الله تعالى، فإنَّ العمل إذا شابه قصدُ المُراءاةِ أو طلبُ السُّمعة كان مُحبِطًا له من أصلِه، وسببًا في انكشافِ سريرةِ صاحبِه يومَ القيامة، ممّا يوجبُ على العبدِ مجاهدةَ نفسِه في تحقيقِ الإخلاصِ واجتنابِ الرِّياء، لما فيه من هبوطٍ بالإنسانِ إلى أدنى الدرجات. ومع ذلك، فإنَّ ظهورَ العملِ الصالحِ للناسِ دون قصدٍ للمراءة، مع تحقّقِ الإخلاص،

(١) المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري، د / محسن عبد الحميد، (ص ١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله (٤ / ١٩٨٧)، (٢٥٦٤)، وأحمد في المسند (١٣ / ٢٢٧)، (٧٨٢٧) .

لا يضر صاحبَه، بل قد يكونُ من عاجلِ بشراه[1]، كما في حديثِ أبي ذرٍّ رضي الله عنه، حين سأل النبيَّ ﷺ عن الرجلِ يعملُ العملَ من الخيرِ فيحمدُه الناسُ عليه، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[2].

ثانيًا: نقض مركزية المرحلة العمرية:

لم يجعل المنهج النبوي السنّ معيارًا مطلقًا للتفاضل، بل قدّم الكفاءة الإيمانية والعلمية، كما في تقديم بعض الشباب في مواطن القيادة أو الشرف، ومثال ذلك: إمامة أسامة بن زيد رضي الله عنه لجيش فيه كبار الصحابة: حيث روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما - أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعثَ بعثًا وأمَّرَ علَيهِم أسامةَ بنَ زيدٍ فطعنَ النَّاسُ في إمرتِهِ، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: «إن كنتم تطعنون في إمرته، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايم الله إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده»[3]، وكذلك تكليف معاذ بن جبل رضي الله عنه بالتعليم والقضاء وهو شاب، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: « إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[4].

يُعدّ الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه نموذجًا بارزًا لتقدير المنهج النبوي لكفاءات الشباب، إذ كان من صغار الصحابة سنًّا، ومع ذلك عُرف بذكائه وفقهه وورعه، وقد ذُكر أنه شهد بدرًا وهو في حدود العشرين من عمره، ومع قِصَر سنّه اختاره النبي ﷺ لمهمة عظيمة،

(١) انظر: مباحث العقيدة في سورة الزمر: ناصر بن علي عايض حسن الشيخ، (١ / ١٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أثني على الصالح فهي بشرى ولا تضره (٤ / ٢٠٣٤)، (٢٦٤٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأيمان والنذور، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «وأيم الله» (٨ / ١٢٨)، (٦٦٢٧)، مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضائل زيد بن حارثة وأسامة بن زيد رضي الله عنهما (٤ / ١٨٨٤)، (٢٤٢٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا (٢ / ١٢٨)، (١٤٩٦) واللفظ له، ومسلم في صحيحه (١ / ٥٠)، (١٩).

فبعثه قاضيًا ومعلّمًا إلى اليمن، وهو ما يدل على أن معيار الاختيار في المنهج النبوي قائم على الكفاءة العلمية والخلقية، لا على الاعتبار العمري وحده.

ويكشفُ هذا الاختيارُ عن بُعدِ نظرِ النبيِّ ﷺ وحكمتِه في إعدادِ القيادات؛ إذ لم يكن يحصرُ المسؤولياتِ في فئةٍ عُمريّةٍ معيّنة، بل كان يُحسنُ اكتشافَ الطاقات، ويُقدِّرُ إمكاناتِ الشباب، ويُؤهِّلُهم لتحمُّلِ الأعباءِ، ومن الشواهدِ على ذلك عنايتُه ﷺ بتقريبِهم وتعليمِهم؛ كما في إردافِه عبدَ اللهِ بنَ عباسٍ (١) والفضلَ بنَ العباسِ (٢) رضي الله عنهما، حيث كان الموقفُ درسًا عمليًّا في غضِّ البصر، وقد علَّم النبيُّ ﷺ صاحبَه بالعملِ قبل القول، وبالموقفِ قبل الوعظ، وكذلك إردافُه عليَّ بنَ أبي طالبٍ (٣) رضي الله عنه، حيث يتجلّى في هذا الموقفِ التعليمُ بالمشاهدة، إذ يُرافقُ النبيُّ ﷺ شبانًا من أمّتِه في شعيرةِ الحجّ ليتعلّموا منه أداءَ المناسكِ بالفعلِ المباشر، لا بمجردِ السماع، كما اعتنى ﷺ بأسامةَ بنِ زيدٍ (٤) رضي الله عنه، وأشركهم في المواقفِ التربويّةِ والتعليميّةِ بما يُسهمُ في صقلِ شخصيّاتهم وإعدادِهم للمستقبل.

ومن ثَمَّ، فإنَّ هذا النهجَ يُمثِّلُ سنّةً نبويّةً راسخةً في تمكينِ الكفاءات وبناءِ القيادات منذ المراحلِ المبكّرة، على أساسٍ من العلمِ والتربيةِ والتدرّبِ العمليّ، بما يُحقِّقُ استمراريّةَ العطاءِ في المجتمعِ الإسلاميّ، وتدلُّ هذه النماذجُ على أنَّ الكفاءةَ والمعيارَ الشرعيَّ قد يُقدَّمان على الاعتبارِ العُمريّ، ممّا يُرسِّخُ مبدأَ العدالةِ في توزيعِ المسؤوليات، ويمنعُ احتكارَ الأدوارِ على أساسِ السِّنّ.

---

(١) فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ أُسَامَةَ بن زيدٍ كان رِدْفَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، مِنْ عَرَفَةَ إِلَى الْمُزْدَلِفَةِ، ثُمَّ أَرْدَفَ الْفَضْلَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ إِلَى مِنًى، قَالَ: فَكِلَاهُمَا قَالَ: لَمْ يَزَلِ النبي صلى الله عليه وسلم يُلَبِّي حَتَّى رَمَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الحج، باب الركوب والارتداف في الحج (٢ / ١٣٧) (١٤٩٦) .

(٢) في الصحيحين من حديث عبدالله بن عباسٍ قال: كَانَ الْفَضْلُ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَصْرِفُ وَجْهَ الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ. أخرجه البخاري في صحيحه كتاب جزاء الصيد، باب حج المرأة عن الرجل (٣ / ١٨)(١٨٥٥).

(٣) شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وأتي بالبدن فقال: «ادعوا لي أبا الحسن»، فدعي علي رضي الله تعالى عنه فقال: خذ بأسفل الحربة، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلاها، فطعن بها البدن، فلما فرغ ركب البغلة، وأردف عليا رضي الله تعالى عنه. أخرجه أبو داود في سننه كِتَاب الْمَنَاسِكِ، بَابٌ فِي الْهَدْيِ إِذَا عَطِبَ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ (٢ / ١٤٩)(١٧٦٦)، ضعفه الألباني. ضعيف أبي داود (٢ / ١٤٩).

(٤) ففي هذا الموقف يتجلى التعليم بالمشاهدة، إذ يرافق النبي صلى الله عليه وسلم شبانًا من أمته في شعيرة الحجّ ليتعلموا منه أداء المناسك بالفعل المباشر، لا بمجرد السماع.

ثالثًا: التوازن النبوي بين التقدير والموضوعية:

مع نقض مركزية السنّ، لم يُلغِ المنهج النبوي اعتبار الخبرة والكبر، بل وجّه إلى توقير الكبير واحترامه، كما في قوله ﷺ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا»(١)، يحقق هذا التوجيه توازنًا دقيقًا بين احترام الخبرة العمرية وعدم تحويلها إلى معيار حصري للتفاضل، بحيث يبقى الميزان قائمًا على الكفاءة مع حفظ القيم الاجتماعية.

وبذلك يتبين أن الحديث النبوي قد نقض مركزية المظهر والمرحلة العمرية بوصفهما معيارين للتفاضل، وأقام بدلهما ميزانًا قوامه الإيمان والعمل والكفاءة، وهو منهج يعيد الاعتبار للجوهر الإنساني، ويؤسس لمجتمع عادل متوازن، تتوزع فيه الأدوار وفق الاستحقاق لا وفق الاعتبارات الشكلية أو العمرية، والله أعلم.

المبحث الثاني: العمر بين النقص والزيادة في ضوء حديث: «خَيْرُكُمْ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ».

وفيه:

المطلب الأول: التصورات البشرية للعمر وأثرها النفسي.

يُعدّ العمر من المفاهيم المركزية في الوعي الإنساني، إذ يرتبط ارتباطًا وثيقًا بنظرة الإنسان إلى ذاته، وتقديره لقيمته، وتحديد موقعه داخل البناء الاجتماعي. غير أن هذا المفهوم لا يُدرك دائمًا إدراكًا موضوعيًا، بل تحكمه تصورات بشرية متباينة، تتأثر بالثقافة السائدة، والبيئة الاجتماعية، والخلفيات النفسية، مما يجعله مجالًا خصبًا للانحراف في الفهم والتقدير.

أولًا: طبيعة التصورات البشرية للعمر:

تتشكل التصورات البشرية للعمر في الغالب ضمن ثنائية النقص والكمال؛ إذ يُنظر إلى مرحلة الشباب بوصفها طور القوة والقدرة على الإنتاج والفاعلية، في حين تُصوَّر الشيخوخة على أنها مرحلة الضعف والتراجع، وقد تتجاوز هذه النظرة حدود الوصف الزمني لتغدو معيارًا يُقاس به قدر الإنسان وقيمته، لا مجرد مرحلة من مراحل عمره.

(١) أخرجه الترمذي في سننه أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باب ما جاء في رحمة الصبيان (٤ / ٣٢١) (١٩١٩)، وقال الألباني: «صحيح». صحيح الجامع الصغير وزياداته: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي (٢ / ٩٥٨).

ولا تقف هذه التصورات عند حدود الإدراك الفردي، بل تتأثر بالسياقات الثقافية والاجتماعية؛ فبعض المجتمعات تميل إلى تمجيد الشباب وتقديمه، بينما تُعلي أخرى من شأن الكِبَر وتمنحه مكانة التوقير والاعتبار، مما يؤدي إلى تباين المعايير في تقييم الأفراد تبعًا لأعمارهم، لا لكفاءاتهم الحقيقية أو إنجازاتهم الفعلية.

وقد أشار القرآن الكريم إلى سنن التفاوت بين الناس في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، كما بيَّن النبي ﷺ تنوع الخلق واختلاف طبائعهم حديث أبي موسى مرفوعا: « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض» [(١)]، مما يدل على أن الاختلاف سنة كونية تشمل الجوانب الخِلقية والسلوكية على السواء، ذكر الطيبي: أنه لما كانت الأوصاف الأربعة ظاهرة في الإنسان والأرض أجريت على حقيقتها، وأولت الأربعة الأخيرة لأنها من الأخلاق الباطنة، فإن المعني بالسهل الرفق واللين، وبالحزن الخرق والعنف، وبالطيب الذي يعني به الأرض العذبة المؤمن الذي هو نفع كله، بالخبيث الذي يراد به الأرض السبخة الكافر الذي هو ضر كله، والذي سبق له الحديث هو الأمور الباطنة؛ لأنها داخلة في حديث القدر بالخير والشر، وأما الأمور الظاهرة من الألوان، وإن كانت مقدرة فلا اعتبار لها فيه [(٢)] اه.

وفي هذا السياق، يقدّم أبو زيد البلخي رحمه الله تصورًا دقيقًا للفروق الفردية، حيث يؤكد ضرورة وعي الإنسان بطبيعة نفسه وحدود طاقتها، من حيث قوة الاحتمال أو ضعفه، وسعة الصدر أو ضيقه، مشيرًا إلى أن هذه الجوانب لا تتعلق بالقوة الجسدية الظاهرة فحسب، بل تمتد إلى الخصائص النفسية والأخلاقية. ويرى أن مراعاة الإنسان لهذه الفروق تسهم في تحقيق التوازن النفسي ودوام الراحة، بينما يؤدي إهمالها إلى اضطراب النفس واجتلاب الأمراض إليها[(٣)].

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ٤٠٠)، (٤٠٦)، وعبد بن حميد في المنتخب من مسنده(١ / ١٩٣) (رقم ٥٤٩)، والترمذي في سننه كِتَاب السُّنَّةِ، باب في القدر(٤ / ٢٢٢) (رقم ٢٩٥٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١ / ٣٦٢)(رقم١٧٥٩)، وفي السلسلة الصحيحة (٤ / ١٧٢)(رقم ١٦٣٠).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، (١ / ١٧٩).

(٣) مصالح الأبدان والأنفس: أبو زيد البلخي، ، (ص ٥١٣).

وعلى الرغم من أن الناس جميعًا ينحدرون من أصل واحد، فإن الفروق بينهم لا ترجع إلى الخِلقة الأولى فحسب، بل تتشكل بدرجة كبيرة من خلال ما يكتسبونه من خبرات وتجارب، فتتعدد النفسيات بتعدد مسارات الحياة، ويتباين الأفراد في قدراتهم وسماتهم تبعًا لذلك.

ثانيًا: الحاجة إلى تصحيح التصورات في ضوء الحديث النبوي:

طول العمر مع حسن العمل نعمة من الله تعالى يهبها من شاء من عباده، وإن العمر المديد إذا صاحبه سوء عمل كان نقمة على صاحبه؛ كما جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه.: «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ» قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ»[1]، قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله -: «خير الناس من طال عمره، وحَسُنَ عمله«؛ لأن الإنسان كُلّمَا طال عُمرهُ في طاعة الله زاد قُربًا إلى الله، وزاد رفعة في الآخرة؛ لأن كل عمل يعمله فيما زاد فيه عمره فهو يقربه إلى ربه - عز وجل - ؛ فخير الناس من وُفِّقَ لهذين الأمرين»[2]، وقال أيضا: «وفي هذا دليل على أن مجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا أحسن عمله؛ لأنه أحيانًا يكون طول العمر شرًا للإنسان، وضررًا عليه، كما قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فهؤلاء الكفار يملي الله لهم - أي: يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات، لا لخير لهم، ولكنه شر لهم - والعياذ بالله؛ لأنهم سوف يزدادون بذلك إثمًا، ومن ثم كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء، قال: لا تقل: أطال الله بقاءك إلا مقيدًا؛ قل: أطال الله بقاءك على طاعته؛ لأن طول البقاء قد يكون شرًّا للإنسان»[3].

وقال المناوي - رحمه الله -: «وهذان قسمان من أربعة: طرفان بينهما واسطة؛ لأنه إما طويل العمر، أو قصيره، ثم هو حسن العمل أو سيئه، فطويل العُمر حَسَن العمل، وطويل العُمر سيء

(١) أخرجه الترمذي في الزهد باب ما جاء في طول العمر للمؤمن: (٦ / ٦٢٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح والدارمي في الرقاق باب أي المؤمنين خير؟: (٢ / ٣٠٨) والحاكم في المستدرك: (١ / ٣٣٩) وصححه على شرط مسلم وأخرج أيضا عن جابر: «ألا أنبئكم بخياركم من شراركم؟ قالوا: بلى قال: خياركم أطولكم أعمارا وأحسنكم عملا» وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وله شاهد صحيح على شرط مسلم ثم ذكر حديث أبي بكرة. وأخرجه الإمام أحمد: (٤ / ١٨٨، ١٩٠ ٥ / ٤٠، ٤٣، ٤٤)، وفي مواضع أخرى والبغوي في شرح السنة: (١٤ / ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) شرح رياض الصالحين: ابن عثيمين (٢ / ١٠٦)

(٣) المرجع السابق (٢ / ١٠٧ / ١٠٨)

العمل، طرفان شرهما: الثاني، وقصير العُمر سيء العمل، واسطتان خيرهما الأول»[1]، يبني المناوي تقسيمه على اعتبارين: طول العمر وقِصَره، مع اقترانهما بحسن العمل أو سوئه، وهو تقسيم عقلي دقيق يُظهر أن المدار الحقيقي في التفاضل ليس على امتداد الزمن في ذاته، بل على ما يُملأ به هذا الزمن من عمل، غير أن في قوله: «وهذان قسمان من أربعة» تنبيهًا لطيفًا إلى أن الحديث إنما ركَّز على طرفي القضية (طول العمر مع حسن العمل، وطول العمر مع سوء العمل)؛ لأنهما الأظهر أثرًا في باب الترغيب والترهيب. فتعليقه يُبرز بُعدًا منهجيًا مهمًا، وهو أن النص النبوي قد يذكر بعض الأقسام لا لحصرها، بل لتسليط الضوء على أعظمها أثرًا، مما يدل على فقهه في استنباط دلالات الحديث وترتيبها.

وقال الطيبي - رحمه الله -: «وإنما كان خير الناس من طال عمره، وحَسُنَ عمله؛ لأن مثل الإنسان في الدار الدنيا مع عمله الصالح، كمثل تاجر سافر من مقره إلى فُرْضَة؛ ليتجر فيها ويربح، فيرجع إلى وطنه سالمًا غانمًا، فيصيب خيرًا، فرأس مال الإنسان عمره، ونقده أنفاسه، ومزاولة جوارحه، وربحه الأعمال الصالحة، فكلما زاد رأس المال زاد الربح، ومقره ومستقره الدار الآخرة، فمتى استقر فيها وجد ثواب ما ربح موفى{إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} فاطر: ٢٩، ومن لم ينتبه لذلك، وأضاع رأس ماله، فلم يوفق للعمل {أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}البقرة: ١٦»[2]، اعتمد الطيبي أسلوب التمثيل التجاري لتقريب المعنى، فجعل العمر رأس المال، والعمل ربحًا، وهذا من أنجع الأساليب في بيان العلاقة بين الزمن والعمل؛ إذ ينقل المعنى من التجريد إلى التصوير المحسوس، غير أن قيمة هذا التشبيه لا تقف عند حد البلاغة، بل تتجاوزه إلى تقرير أصل عقدي وسلوكي، وهو أن العمر ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو وعاء للكسب الأخروي، كما أن في قوله: «كلما زاد رأس المال زاد الربح» إشارة إلى أن طول العمر لا يكون نعمة إلا مع استثماره في الطاعة، وإلا انقلب إلى خسارة، وهو ما ينسجم تمامًا مع دلالة الحديث. فتعليقه يجمع بين عمق المعنى، وحسن التصوير، وربط النص بمقاصد الشريعة في استثمار العمر.

(١) فيض القدير: المناوي (٣ / ٤٨٠)
(٢) شرح المشكاة: الطيبي(٥ / ١٧٣٤)

وَفِي حديث عبد الله بن بسر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمْرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «أَنْ تُفَارِقَ الدُّنْيَا وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - » وَفِي رِوَايَةٍ: «قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَيَكْفِينِي ذَلِكَ، قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: «نَعَمْ وَيَفْضُلُ عَنْكَ»[1]، وَفِي حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: «أَلَا أُنْبِئُكُمْ بِخِيَارِكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالًا»[2]، فهذه الأحاديث تنقل معيار التقييم من مجرد الامتداد الزمني إلى جودة العمل، ويُعيد توجيه الوعي من التركيز على «كم عاش الإنسان» إلى «كيف عاش»، وهو تحولٌ عميق في بنية التفكير، يُحرّر الإنسان من الأحكام النمطية المرتبطة بالعمر، ويذلك يتضح أن التصور النبوي للعمر يُعيد صياغة العلاقة بين الزمن والقيمة، بحيث لا يكون العمر في ذاته معيارًا للنقص أو الزيادة، بل وعاءً للعمل الصالح، وبهذا يتحول العمر إلى فرصة مستمرة للتكامل والنماء، لا إلى قيدٍ نفسي أو اجتماعي، كما يُسهم هذا التصور في تحقيق التوازن النفسي، إذ يمنح كل مرحلة عمرية معناها الخاص، ويُبقي باب العطاء مفتوحًا أمام الإنسان ما دام حيًّا، مما يعزز الأمل، ويحدّ من مشاعر الإحباط أو الغرور المرتبطة بالعمر.

وبناءً على ما سبق، فإن التصورات البشرية للعمر –إذا لم تُضبط بالميزان الشرعي– قد تتحول إلى مصدر للاضطراب النفسي والاختلال الاجتماعي، أما في ضوء التوجيه النبوي، فإن العمر يُفهم بوصفه مجالًا للعمل والإنجاز، لا معيارًا للتفاضل في ذاته، وهو ما يحقق التوازن في النظرة إلى الإنسان، ويُسهم في بناء مجتمعٍ متكامل تتكافأ فيه الفرص، وتُستثمر فيه الطاقات على اختلاف مراحلها العمرية.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٨٨ ١٩٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧ / ٨٩) برقم (٣٤٤٢٠)، والترمذي في الزهد باب ما جاء في طول العمر، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه (٩ / ٣١٤) (٢٣٢٩)، وصححه الحاكم في المستدرك: (١ / ٤٩٥) ووافقه الذهبي، وابن حبان في صحيحه (٧ / ٢٤٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء: (٦ / ١١١)، والبغوي في شرح السنة: (٥ / ١٦) وإسناده صحيح..

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٢٣٥ - ٤٠٣)، وعبد ابن حميد في «المنتخب من المسند » (٢ / ١٤٠)، وأبو يعلى في «مسنده » (٢ / ٨٨٤)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٥ / ٢٠).

المطلب الثاني: معيار التفاضل بين الناس في ضوء السنة النبوية.

يُعدّ معيارُ التفاضل بين الناس من القضايا المركزية التي عالجتها السنة النبوية معالجةً دقيقةً تُصحِّح التصورات البشرية، وتُقيم ميزان التفاضل على أسسٍ ربانية عادلة، بعيدًا عن الاعتبارات الشكلية أو الدنيوية، وقد ذكر النبي ﷺ نموذجًا تطبيقيًّا بديعًا لهذا المعيار؛ إذ لا يكتفي بتقرير الأصل العام، بل يُنزِّله في صورٍ عمليةٍ متعدِّدة تُجسِّد حقيقة التفاضل في واقع الحياة، فحديث أبي هريرة الله قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ »[1]، وهو حديثٌ جامعٌ يؤصِّل لمنظومةٍ متكاملةٍ من القيم الاجتماعية، قال النووي: «ويدخل في كشف الكربة وتفريجها: من أزالها بماله، أو جاهه، أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه من أزالها بإشارته، ورأيه ودلالته»[2]، وهذا يُبرز سعة مفهوم الإحسان، وأنه لا يقتصر على صورةٍ واحدة، بل يشمل كل صور النفع، مما يعمِّق دلالة الحديث في بناء التكافل.

ويُستفاد من الحديث قاعدة أن الجزاء من جنس العمل، ويتأكد ذلك مع تصوير القرآن لهول يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٥: ٣٧]، حيث يظهر أثر هذه الأعمال في النجاة، ويُبرز الارتباط بين العمل في الدنيا والجزاء في الآخرة.

وفي هذا السياق، يأتي الحديث النبوي محلّ البحث ليؤصِّل مبدأً عظيمًا من مبادئ الإصلاح الاجتماعي، وهو مبدأ التراحم والتكافل، حيث يُقرِّر الأساس الذي ينبغي أن تقوم عليه المعاملات

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن – (٤ / ٢٠٧٤) (حديث رقم ٢٦٩٩)، وأبو داود بلفظ الإمام مسلم مختصرا في كتاب الآداب - باب في المعونة للمسلم – (٤ / ٢٨٧)(حديث رقم ٤٩٤٦) عن أبي هريرة، والترمذي بلفظ الإمام مسلم في كتاب القراءات - باب ما جاء في الستر على المسلم (٤ / ٣٤) (حديث رقم ٢٩٤٥) عن أبى هريرة.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦ / ١٣٥) .

الإنسانية، ويُبيِّن المنهج الأمثل لأداء الواجبات المتبادلة بين أفراد المجتمع. فالعلاقات في التصور الإسلامي لا تُبنى على المصالح المادية المجردة، ولا تحكمها دوافع الأنانية والمنفعة، وإنما تستمدُّ نقاءها من الإخلاص لله تعالى، وتتحرك بدافع المحبة فيه، وابتغاء مرضاته، ورجاء ثوابه في الدار الآخرة، وهو ما يُمثِّل حقيقة الإيمان وجوهره.

وقد تضمَّن الحديث بيانًا واضحًا لفضل قضاء حوائج الناس، مقرونًا بذكر الجزاء العظيم الذي أعدَّه الله تعالى لمن يقوم بذلك؛ إذ قرر قاعدةً كليةً مفادها أن الجزاء من جنس العمل، فمن فرَّج عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، فرَّج الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، وعبر هنا بمؤمن على ما في أكثر النسخ، وفيما يأتي عبر بمسلم إما لأن الكربة تتعلق بالباطن فناسب الإيمان المتعلق به والستر يتعلق بالظاهر غالبا، فناسب الإسلام المتعلق به[1].

ومن أمثلة مقابلة الجميل بالجميل، وملاقاة العمل بمثله من الثواب ما جاء في حديث آخر قوله ﷺ: «أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة، وأيما مؤمن سقى مؤمن على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم، وأيما مؤمن كسا مؤمنًا على عرى كساه الله من خضر الجنة»[2].

ومن قضاء حوائج الناس أيضا: التيسير على المعسر، قال ابن كثير عند تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ كَانَ ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠]: «يأمر الله تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال تعالى: »وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة « لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين إما أن تقض وإما أن تربى، ثم يندب الله إلى الوضع عنه، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: وإن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين»[3].

(١) الفتح المبين لشرح الأربعين لأحمد بن حجر الهيتمي (ص: ٢٥٥).

(٢) الحديث أخرجه كل من: أبو داود في سننه في كتاب الزكاة، باب في فضل سقى الماء، (٢ / ١٣٠) (رقم ١٦٧٩)، عن أبي سعيد الخدري وسكت عنه، وأحمد في المسند (٣ / ١٣) وضعفه الألباني في: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (١ / ٣٣١). .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١ / ٤٩١).

وقد حث النبي ﷺ أصحاب الأموال على الصبر على المعسرين الذين لا يستطيعون الوفاء بالدين وإنظارهم حتى يتيسروا فالمسلمون كجسد واحد يتحسس كل منهم مشاعر الآخرين، وتنبعث فيه أحاسيسهم فيشاركهم أفراحهم وأحزانهم يسر لما يحظون به من فرح وسرور وبهجة، وما يتمتعون به من أنس وصحة وسعادة، ويتألم لما ينالهم من أذى، وما يصيبهم من مرض، وما يقع بهم من فاقة وفقر وضيق عيش وكرب، قال: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منع عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١)، قال الحافظ ابن حجر: «قال القاضي عياض: فتشبيهه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، وفيه تقريب الفهم وإظهار للمعاني في الصورة المرئية وفيه تعظيم لحقوق المسلمين والحض على تعاونهم وملاطفة بعضهم بعضا، وقال ابن أبي جمرة: «شبه النبي ﷺ الإيمان بالجسد الواحد، وأهله بالأعضاء ؛ لأن الإيمان أصلى وفروعه التكاليف، فإذا أخل المرء بشيء من التكاليف شأن ذلك الإخلال الأصل»(٢).

هذا: ومن الأمور التي أوصى بها النبي ﷺ في هذا الحديث أيضا الستر على المسلم إذا صدرت منه زلة أو هفوة، وذلك صونا لكرامته، وإصلاحا لحاله، وإجبارا له على سلوكه الطريق المستقيم، ومحاصرة لاتساع دائرة الشر في المجتمع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وقد رغب النبي ﷺ في الستر على المسلم الذى له مكانة في المجتمع وقيمة عند الناس، لكن هذا مشروط إذا صدرت منه زلة عن عائشة رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم إلا في الحدود»(٣).

قال النووي رحمه الله: «وأما الستر المندوب إليه هنا فالمراد به الستر على ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس هو معروفا بالأذى والفساد فأما المعروف بذلك فيستحب أن لا يستر عليه بل ترفع قضيته إلى ولي الأمر إن لم يخف من ذلك مفسدة لأن الستر على هذا يطمعه في

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأدب - باب رحمة الناس والبهائم – (٨ / ١٠) (رقم ٦٠١١)، ومسلم واللفظ له في كتاب البر والصلة والآداب - باب تراحم الناس وتعاطفهم وتعاضدهم – (٤ / ١٩٩٩) (رقم ٢٥٨٦)، والإمام أحمد عن النعمان بن بشير - رضي الله عنه (٤ / ٢٧٠) .

(٢) فتح الباري: لابن حجر (٢٢ / ٢٢٣) .

(٣) الحديث أخرجه ابو داود في كتاب الحدود - باب في الحد يشفع فيه (٤ / ١٣١)حديث رقم ٤٣٧٥ وسكت عنه عن عائشة رضى الله عنه، والإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنه – (٦ / ١٨١) .

الإيذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله هذا كله في ستر معصية وقعت وانقضت أما معصية رآه عليها وهو بعد متلبس بها فتجب المبادرة بإنكارها عليه ومنعه منها على من قدر على ذلك ولا يحل تأخيرها فإن عجز لزمه رفعها إلى ولي الأمر إذا لم تترتب على ذلك مفسدة»[1]، فكان المجاهر بالشر والفسق والفجور، الذى يتباهى بالمعصية فلا يستر عليه، بل يجب رفع أمره إلى ولى الأمر حتى يحاسبه على فسقه وفجوره ليكن ردعا لغيره «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

كما يقرر الرسول ﷺ في هذه الجملة مبدأ التعاون والتضامن والتكافل بين أفراد المجتمع، حتى يسعى كل فرد من أفراده في حاجة غيره، بنفسه أو بماله أو بجاهه، حتى يشعر الجميع أنهم كالجسد الواحد، هذا ما دعا إليه الإسلام وأمر به المولى عز وجل في القرآن ووضحته السنة النبوية ؛ لأنه عنوان المجتمع الإيمان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢].

ولما كان التعاون له أثر واضح في بناء المجتمعات وحياة الأمم والأفراد كان من أفضل الأعمال عند الله عز وجل، وكان عبادة لها من الأجر والثواب مثل ما لصلاة والصيام والصدقة ونحو ذلك أو يزيد قال ﷺ: «وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة»[2]، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: «وفي الحديث الحض على الخير بالفعل وبالتسبب إليه بكل وجه، والشفاعة إلى الكبير في كشف كربة ومعونة ضعيف، إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى الرئيس ولا التمكن منه ليلج إليه، أو يوضح له مراده ليعرف حاله على وجهه، ولهذا فقد كان رسول الله ﷺ لا يحتجب»[3].

وقوله ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة...»؛ فيه حثٌّ على الاجتماع في المساجد لتلاوة كتاب الله، وتفهم آياته والعمل بها؛ لأن القرآن الكريم مصدر الحكمة وينبوع الرحمة، ولا شك أن الاشتغال به من أفضل القرب [4]، فالاجتماع في بيوت الله لمذاكرة القرآن ومدارسته يُجازى عليه التالون المخلصون

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦ / ٣٠٣، ٣٠٤) .
(٢) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الزكاة - باب اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٧ / ١٣٢) (١٠٠٩).
(٣) فتح الباري: لابن حجر (٢١ / ٢٣٧) .
(٤) انظر: شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية: ابن دقيق العيد، (١ / ١٢٠).

بأربعة أمور: نزول السكينة، وغشيان الرحمة، وحفوف الملائكة، وذكر الله لهم فيمن عنده، كما دل عليه نص الحديث، وقوله تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾، عن أبي هريرة الله قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ هم خير منهم »[1]، وهو دليل على فضل الذكر، وعلو منزلة الذاكرين، وارتباط ذلك بما سبق من مجالس العلم والقرآن.

ثم يختم النبي ﷺ هذا الحديث بقوله: «ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، وهو تعقيب جامع لما سبق، يتضمن تقرير أن التفاضل الحقيقي إنما هو بالأعمال، فمن قصّر فيها لم ينفعه نسب ولا جاه، وفي هذه الجملة بيان عدل الإسلام، وأن طريق الوصول إلى الله إنما هو بالتقوى والعمل الصالح، فقد قرر الإسلام وحدة الإنسانية، وأن الناس جميعًا من نفسٍ واحدة، ولا فضل لأحد في أصل الخلقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣]، فدلّ ذلك على أن التفاضل بالتقوى، لا بالأنساب.

كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فبيّن أن العمل هو سبب بلوغ الدرجات، لا الحسب ولا النسب، فمن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه، قال المباركفوري: «من أخره عمل عن بلوغ درجة السعادة لم يجبره نقيضه لكونه نسيبا في قومه، إذ لا يحصل التقرب إلى الله تعالى بالنسب بل الأعمال الصالحة"[2]، فالله سبحانه وتعالى قد رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب بينهم قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ومن هذا المنطلق، يُقرِّر القرآن الكريم مبدأً أصيلًا في بناء التصور الإسلامي للتفاضل، وهو التحذير من الاتكاء على الأنساب أو الركون إليها في تحقيق النجاة؛ إذ يوجِّه الخطاب ابتداءً إلى النبي ﷺ بإنذار أقرب الناس إليه نسبًا، كما في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[الشعراء: ٢١٤]، في دلالة واضحة على أن القرابة لا تُغني عن صاحبها شيئًا ما لم

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري بهذا اللفظ في كتاب التوحيد - باب قول الله تعالى: « ويحذركم الله نفسه » عن أبي هريرة ٢٨ / ١٦٣، ١٦٤، وأخرجه مسلم بهذا اللفظ في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار - باب الحث على ذكر الله تعالى عن أبي هريرة ١٧ / ٣، ٤، وأخرجه الترمذي بهذا اللفظ في كتاب الدعوات باب في حسن الظن بالله عز وجل عن أبي هريرة، وقال عقبه هذا حديث حسن صحيح ٥ / ٥٨١ .

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: المباركفوري (٨ / ٢١٦).

تُدعَّم بالإيمان والعمل الصالح.

وقد تجلَّى الامتثال النبوي لهذا التوجيه الإلهي في أروع صوره العملية؛ حيث بادر النبي ﷺ إلى تبليغ دعوة الله لأقرب الناس إليه، غير مُحابٍ في ذلك أحدًا، رغم ما عُرف عنه من عظيم الشفقة والرحمة بأهله وعشيرته، فقد صعد على الصفا ونادى بطون قريش، مُصرِّحًا بمبدأ المسؤولية الفردية، ومُعلنًا سقوط الامتيازات النسبية أمام مقتضيات الإيمان، فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئًا..."، ثم خصَّ أقرب أقاربه بالنداء، فقال: "يا بني عبد مناف... يا عباس بن عبد المطلب... يا صفية عمة رسول الله... ويا فاطمة بنت محمد، سليني ما شئت من مالي، لا أُغني عنك من الله شيئًا"(١)، ويُبرز هذا الموقف النبوي بجلاءٍ أن معيار النجاة والتفاضل في الإسلام لا يقوم على وشائج القربى، ولا على الاعتبارات العائلية، بل على أساس الإيمان والعمل. كما يكشف عن تجريدٍ كاملٍ لمفهوم العدالة الإلهية من أي محاباة، ويؤكد أن أقرب الناس إلى النبي ﷺ لا يملكون امتيازًا ذاتيًّا يُعفيهم من التكاليف أو يضمن لهم النجاة.

وبذلك يتكامل هذا النص مع ما سبق تقريره من أن العمل الصالح هو أساس التفاضل الحقيقي، وأن النسب – مهما علا – لا ينهض بصاحبه إذا قعد به عمله، وهو المعنى الذي أكدته السنة في قوله ﷺ: "ومن أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه"، مما يُرسِّخ مبدأ المساواة العادلة، ويُقيم الحياة الإنسانية على ميزانٍ قوامه التقوى والعمل الصالح.

المبحث الثالث: ضبط حب الظهور والبحث عن التقدير في ضوء حديث: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ»، وفيه:

المطلب الأول: حب الظهور بين الفطرة والانحراف.

يُعَدُّ حبُّ الظهور ونيلُ التقدير من الدوافع الفطرية في الإنسان، وهو في أصله غير مذموم، بل قد يدفع إلى التنافس في الخيرات وبذل الجهد لتحصيل الكمالات المشروعة، غير أنّه ينحرف إذا انفصل عن ضوابط الشرع وصار غايةً لذاته تُطلب بها المحمدة وتعظيم النفس، ومن أبرز

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا، باب: هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟ (٤ / ٦) (٢٧٥٣)، وفي تفسير سورة "تبت": ٨ / ٥٠١ - ٥٠٢، وفي الأنبياء، ومسلم في الإيمان: ١ / ١٩٢ - ١٩٣، والبغوي في شرح السنة: ١٣ / ٣٢٩. وأخرجه مسلم في الأيمان باب في قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (١ / ١٩٢)(رقم ٢٠٤).

مظاهره: كثرةُ تزكية المرء لنفسه خلافًا للنهي الشرعي، وتكرارُ إبراز الذات بعبارات التعظيم، مع التضايق من إنجازات الآخرين ومحاولة الانتقاص منها أو تتبّع عثراتهم؛ طلبًا للتقدّم عليهم، كما يظهر في ضعف قبول الحق والاعتراف بالخطأ، والعجلة في الكلام والمواقف رغبةً في التصدّر، مما يكشف عن دافعٍ داخليٍّ يسعى للظهور ولو على حساب القيم والآخرين.

وفي هذا السياق يأتي التوجيه النبوي الحاسم عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ ولم أسمع أحداً يقول: قال النبي ﷺ غيره فدنوت منه فسمعته يقول: قال النبي ﷺ: «مَن سمع سمع الله به، ومَن يُرائي يراني الله به»[1] ليضع حدًّا فاصلًا بين الاستعمال المشروع لهذا الميل الفطري، والانحراف به إلى درك الرياء والسمعة قال العلماء معناه من راءى بعمله وسمعه الناس - ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمع الله به يوم القيامة الناس وفضحه وقيل معناه من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عيوبه وقيل أسمعه المكروه وقيل أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه وقيل معناه من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس وكان ذلك حظه منه [2] .

يقول ابن قدامة - رحمه الله - في تعريف الرياء والسمعة: «اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية والسمعة مشتقة من السماع»[3]، ويقول الفيروز آبادي: «وراءيته مراءاة ورياء: أريته على خلاف ما أنا عليه»[4]، ويقول الحافظ ابن حجر: «السمعة - بضم المهملة وسكون الميم - مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر»[5].

هذه التعريفات تدل على معنى واحد، وهو أن المرائي والمسمع لا يقصد بفعله وجه الله تبارك وتعالى، وإنما يقصد أن يراه الناس ويسمعوه فيحصل له من مدح الناس وثنائهم عليه، وهذا كله في اليسير من الرياء، وأما إذا كان كثيراً فإنه قد يصل بصاحبه إلى الشرك الأكبر الذي يصدر من

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة (١١ / ٣٣٦)، (٦٤٩٩)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (٤ / ٢٢٨٩) (٢٩٨٧)، وقوله: ((سمَّع)) يعني: قال قولًا يسمعه الناس رياءً، وقوله: ((يرائي)) يعني: يعمل العمل ليراه الناس فيحمدوه عليه، وقوله: ((سمَّع الله به، ويرائي الله به)) معناه: فضحه يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيريه ثواب أعماله، ثم يحرمه منها والناس يرون.

(٢) انظر هامش: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، (١٨ / ١١٦).

(٣) مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِينْ: نجم الدين، ابن قدامة المقدسي، ص (٢١٤).

(٤) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، (٢ / ١١٦).

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري: ابن حجر العسقلاني (١١ / ٣٣٦).

المنافقين الذين توعدهم الله عز وجل بالدرك الأسفل من النار كما سيأتي بيان ذلك في مبحث حكم الرياء إن شاء الله تعالى.

ويدل حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه في الرياء والسمعة على أن هناك فرقاً بين الرياء والسمعة، فالذي يُسمع الناس بأعماله يُسمع الله به ويفضحه، والذي يرائي الناس بأعماله يرائي الله به ويفضحه ويشهره، فالسمعة هي الفعل لأجل سماع الناس، والرياء هو العمل لأجل رؤية الناس، فالسمعة تتعلق بحاسة السمع، والرياء يتعلق بحاسة البصر [١]، ولذلك نجد الإمام البخاري رحمه الله تعالى - عنون في صحيحه بعنوان يُدلل فيه على الفرق بين الرياء والسمعة حيث قال رحمه الله تعالى في صحيحه: « كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة »[٢]، وقال الكوراني «(من سمّع سمّع الله به) - بتشديد الميم - يقال: سمع بالشيء إذا اشتهر به، والمعنى: من عمل عملًا أراد به إسماع الناس لا لوجه الله سمّع الله الناس، أي: كان هذا ثوابه الذي قصده. وقيل: سمع الله أي: يعلمهم أنه إنما فعله سُمعةَ فيحرم في الدنيا أيضًا، فإنه عمله للدنيا ليعتقد صلاحه. وفي رواية أحمد وغيره: «من قام رياءً وسمعة سمع الله به يوم القيامة على رؤوس الخلائق» [٣] .

يقول صاحب تيسير العزيز الحميد: « الفرق بين الرياء وبين السمعة أن الرياء هو العمل لرؤية الناس، والسمعة لأجل سماعهم، فالرياء يتعلق بحاسة البصر والسمعة بحاسة السمع، ويدخل فيه أن يخفي عمله الله، ثم يحدث به الناس »[٤]، ويقول ابن قدامة رحمه الله تعالى: « اعلم أن أصل الرياء حب الجاه والمنزلة، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول، وهي حسب لذة الحمد، والفرار من ألم الذم والطمع فيما في أيدي الناس »[٥].

يكشف الحديث عن سنّة إلهية في المعاملة، قوامها أن الجزاء من جنس العمل؛ فمن قصد بعمله إشهار نفسه بين الناس، أظهر الله خبيئة قصده، وفضحه على رؤوس الأشهاد، فصار مآله

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العينى، (٢٣ / ٨٦)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، (٦ / ٢٤٧١).

(٢) صحيح البخاري (٨ / ٤).

(٣) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري: أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمد الكوراني الشافعي، (١٠ / ١٧٢).

(٤) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، ص (٥٢٥).

(٥) مختصر منهاج القاصدين: ابن قدامة المقدسي (ص١٢٢)

إلى ضد ما أراد؛ إذ طلب المدح فنال الذم، وسعى إلى الرفعة فكان سببًا في سقوطه. وهذا يبيِّن أن الانحراف بحب الظهور عن حدوده المشروعة يُحوِّله من دافعٍ للبناء إلى معولٍ للهدم، ومن ثمّ: فإن الضابط في هذا الباب هو توجيه هذا الميل الفطري وجهةً صحيحة، بأن يكون القصد من العمل ابتغاء وجه الله تعالى، لا تحصيل ثناء الناس، مع عدم الالتفات إلى ما قد يترتب على العمل من مدحٍ أو شهرةٍ عارضة. فالمؤمن الحق يجعل رضى الله غايته، ويجعل نظر الخلق تبعًا لا أصلًا، فيتحقق له الإخلاص الذي هو روح العمل، وأساس قبوله.

وبذلك يتبيَّن أن حب الظهور ليس مذمومًا في ذاته، وإنما يُمدح أو يُذم بحسب غايته ومآله؛ فإن وُجِّه لخدمة الحق وإعلاء الخير مع صدق النية كان محمودًا، وإن انحرف إلى طلب السمعة والرياء كان من أخطر آفات القلوب، التي حذَّر منها الحديث النبوي، وأرشد إلى سبل الوقاية منها بضبط النية ومراقبة المقصد.

يتضمن هذا الحديث جملةً من الفوائد التربوية والإيمانية، من أبرزها:

أولًا: وجوب توجيه القصد في جميع الأعمال إلى الله تعالى وحده، ابتغاء وجهه والدار الآخرة؛ إذ الإخلاص هو أساس قبول العمل، كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ويُعدّ الرياء من المحرمات لما فيه من صرف العمل لغير الله، وقد دلّ الحديث على أن المرائي يُجازى بنقيض قصده؛ حيث يُفضحه الله يوم القيامة أمام الخلائق، فيُريه ثواب عمله ثم يُحرم منه، تحقيقًا لقاعدة: الجزاء من جنس العمل [١].

ثانيًا: أن الرياء صورة من صور الكذب وخداع النفس، وهو من الشرك الأصغر، لما يتضمنه من إشراك غير الله في القصد، وهو مُفسد للعمل إذا قارنه أو تسلل إليه؛ إذ لا يقبل الله تعالى من الأعمال إلا ما تحقق فيه شرطان: الإخلاص له سبحانه، والمتابعة لرسول الله ﷺ، ومن ثمّ يتعين على المسلم أن يحذر من الرياء ابتداءً، وأن يجاهد نفسه في دفعه إن طرأ عليه أثناء العمل، ويؤكد ذلك ما ورد في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشِركه»[٢]، وهو نصٌّ صريح في ردّ العمل الذي لم يُخلص فيه لله تعالى.

(١) انظر: سبل السلام: محمد بن إسماعيل الصنعاني، (٢ / ٥٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله ٤ / ٢٢٨٩ (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة

ثالثًا: لا ينبغي للمسلم أن يترك الأعمال الصالحة خشية الوقوع في الرياء؛ لأن الأصل في العمل أن يُقصد به وجه الله تعالى، ووجود الناس أو اطلاعهم على العمل لا يقتضي بطلانه في ذاته. وقد يعمد الشيطان إلى تثبيط العبد عن الطاعات بإلقاء وساوس الرياء في قلبه، ليحرمه من الخير، فيظن أن إظهار العمل أو وقوعه بمرأى من الناس يقدح في إخلاصه، وهذا من مكايد الشيطان. وعليه، فإن الواجب على المسلم إذا عرض له ذلك أن يدفع هذه الوساوس، ويستعيذ بالله تعالى منها، ويمضي في عمله غير ملتفت إليها، سواء طرأت عليه قبل العمل أو في أثنائه، وقد أشار إلى هذا المعنى ابن الأثير رحمه الله تعالى، فقال: «إنك تريد بهذا الرياء، فلا يمنعه ذلك عن فعله» اه[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: ومن كان له وِردٌ مشروعٌ من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك، فإنه يصليه حيث كان، ولا ينبغي له أن يدَع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس - إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سرًّا لله - مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص...ومن نهى عن أمر مشروع بمجرد زعمه أن ذلك رياءٌ فنهيه مردود عليه...والأعمال المشروعة لا يُنهى عنها خوفًا من الرياء، بل يؤمر بها، وبالإخلاص فيها»[2].

المطلب الثاني: الضبط النبوي لحب الظهور وأثره في التوازن النفسي.

جاء التوجيه النبوي لضبط دافع حبِّ الظهور ضبطًا متوازنًا، فلا يُلغيه لكونه ميلًا فطريًّا، ولا يتركه دون توجيه فينحرف إلى الرياء، بل يهذّبه بما يحقق الإخلاص، ويبرز ذلك في التحذير من توجيه العمل لغير الله، وبيان أن من قصد بعمله إرضاء الناس وطلب ثنائهم، انقلب عليه ذلك خسرانًا وفضيحة، لأن الجزاء من جنس العمل، كانَ سَعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ في إبِلِه، فجاءَه ابنُه عُمَرُ، فلَمَّا رَآهُ سَعدٌ قال: أعوذُ باللهِ مِن شَرِّ هذا الرَّاكِبِ! فنَزَلَ فقال له: أنَزَلتَ في إبِلِكَ وغَنَمِكَ، وتَرَكتَ النَّاسَ يَتَنازَعونَ المُلكَ بينَهم؟ فضَرَبَ سَعدٌ في صَدرِه، فقال: اسكُتْ، سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبدَ التَّقيَّ، الغَنيَّ، الخَفيَّ»[3].

رضي الله عنه.

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين ابن الأثير الجزري، (٥ / ٢٨٦).

(٢) مجموع الفتاوى، تقي الدين ابن تيمية الحراني (٢٣ / ١٧٣ - ١٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، (٤ / ٢٢٧٧) (٢٩٦٥) أخرجه أحمد (٣ / ٥١) (١٤٤١)، وأبو نعيم في حلية

كما يُعيد هذا التوجيه ترتيب الأولويات النفسية، فينقل الاهتمام من نظر الخلق إلى نظر الخالق، ومن طلب الثناء العاجل إلى ابتغاء القبول عند الله، مما يحرّر الإنسان من القلق والاضطراب المرتبطين بآراء الناس. وبهذا يسهم في تحقيق الطمأنينة وبناء شخصية متزنة تعمل بإخلاص دون تعلق مرضي بالمظاهر.

وعليه: فإن الضبط النبوي لحب الظهور يهدف إلى تهذيبه وتوجيهه ليكون دافعًا إيجابيًا للإصلاح، لا بابًا للرياء، وبذلك يتحقق التوازن النفسي بين الفطرة الإنسانية ومتطلبات الإخلاص، يقول د. أحمد مختار: «حُبُّ الظُّهور: التباهي، رغبة الإنسان في الكشف عن صفاته ومزاياه وفي عرض ما يلفت إليه الأنظار» (١)، إن الإسلام بطبيعته المعتدلة يريد لأفراده أن يكونوا صالحين متوازنين لا يغترون بالدنيا أو تتعلق بها قلوبهم، فما مد أحدٌ عينيه إلى متاعها إلا واشرأبت نفسه وقارب الفتنة أو حام حول حماها، والسعيد من جعلها مطيةً للآخرة فصارت له دار ممر لا دار مقر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١] .

ومن الاغترار بالدنيا السعي خلف الشهرة وبريقها، فكثير من الناس تتوق نفسه إلى أن يُشار إليه بالبنان أو أن يكون هو حديث المجالس أو أن يُسمع قوله أو يُكتب، لذا قد يسعى بعضهم بكل سبيل إلى تحقيق ذلك ولو على حساب مخالفة الدين والأخلاق، إذ من خصائص الشهرة أنها تؤز المرء إلى المغامرة أزًّا، ويدعى إلى تبرير كل وسيلة موصلة إليها دعّا، وهنا مكمن الخطر ومحمل الشوك الذي لا ينتقش، وقد دلت النصوص على التحذير عن الاغترار بالدنيا، والانخداع لها، والتنافس فيها، وقد أخرج الشيخان في «صحيحيهما» من حديث عمرو بن عوف الأنصاري - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين، يأتي بجزيتها، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هو صالح أهل البحرين، وأَمّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافت صلاة الصبح مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين رآهم، وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء؟ »، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: «فأبشروا، وأمّلوا ما يسركم، فوالله لا الفقر

الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، (١ / ٢٤) .

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة: د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، (٢ / ١٤٤٤).

أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها، كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم» (١) .

لذا: حذر الشرع المطهر من حب الشهرة والظهور الداعي النفوس المريضة إلى تعلق القلب بتأسيس بنيان السمعة على شفا جرفٍ هار أو الإعداد لرفع الظمأ من سراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، فقال تعالى معلمًا نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام١٦٢]، يُبيّن وهبةُ الزحيلي في التفسير المنير أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ آيةٌ جامعة تُقرِّر إخلاصَ جميع الأعمال الظاهرة والباطنة لله تعالى؛ فالصلاة وسائر العبادات، بل حياةُ الإنسان ومماته، كلُّها ينبغي أن تكون خالصةً لوجهه سبحانه، طلبًا لرضوانه وطاعةً له. وقد خُصَّت الصلاةُ بالذكر لكونها أشرفَ العبادات وروحها، مع احتمال تسرّب الشرك إليها، فكان التنبيه على تصفيتها من كل شائبة. وتُثبت الآية توحيدَ الألوهية بإفراد الله بالعبادة، وتُعقِّبه بتوحيد الربوبية بإثبات أنه المالك المدبّر وحده، فلا يُطلب ربٌّ سواه، ولا يُرجى نفعٌ ولا يُخشى ضرٌّ إلا منه، كما تقرّر مبدأ المسؤولية الفردية، وأن كل إنسانٍ مجزيٌّ بعمله، لا يحملُ وزرَ غيره، وأن المرجعَ إلى الله يوم القيامة ليحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، فيجازيهم بعدله وعلمه(٢).

وقد حذر ﷺ من سوء الأخلاق التي يكون عملها وسعيها وقولها لغير الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا قَالَ فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا قَالَ مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ قَالَ كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ

(١) انظر: مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه: محمد بن علي بن آدم بن موسى (١ / ١١٢).

(٢) انظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي، (٨ / ١٢٥).

ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[1]، حيث كانت أعمالهم في الظاهر من أجل القرب، لكنها لما خالطها قصد الرياء وطلب المحمدة كان جزاؤهم الخزي والعذاب. ويكشف هذا الحديث أن البحث عن الشهرة ليس مجرد خلل سلوكي، بل انحراف في أصل التوحيد، إذ تتحول الغاية من طلب رضوان الله إلى طلب ثناء الخلق، فيكون ذلك صورة عملية للرياء المحبط للأعمال..

كما يتسع التحذير النبوي ليشمل كل ما يفضي إلى لبوس الشهرة، حسيًا كان أو معنويًا؛ ففي قوله ﷺ: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَلْبَسَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ»[2]، تنبيه إلى ذم التميز المقصود لطلب الأنظار، ولا يقتصر ذلك على اللباس، بل يتناول كل ما يقصد به الاشتهار من هيئات وتصرفات، وقد قرر أهل العلم هذا المعنى، فقال البيهقي: «كل شيء صير صاحبه شهرة فحقه أن يجتنب»[3]، فيدخل في ذلك ما يسمى باللباس المعنوي؛ كإظهار الزهد أو العلم أو الورع بقصد التصدر. أما من اشتهر تبعًا لإخلاصه دون قصد للشهرة فليس داخلًا في الذم، غير أنه مأمور بمراقبة قلبه خشية دخول الرياء.

وقد جسد الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى عمليًا، فكانوا أبعد الناس عن طلب الشهرة؛ فهذا بريدة بن الحصيب رضي الله عنه يعد ظهوره في القتال حتى عرف مكانه ذنبًا يخشاه، قال: «شَهِدْتُ خَيْبَرَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ صَعِدَ الثُّلْمَةَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى رُئِيَ مَكَانِي، وَعَلَيَّ ثَوْبٌ أَحْمَرُ، فَمَا أَعْلَمُ أَنِّي رَكِبْتُ فِي الإِسْلاَمِ ذَنْباً أَعْظَمَ عَلَيَّ مِنْهُ - أَيْ: الشُّهْرَةَ»[4]، وفي موقف أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه حين آثر التنازل عن الإمارة لعمرو بن العاص رضي الله عنه شاهد على

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار (٣ / ١٥١٣) (١٩٠٥)، والنسائي في الكبرى كِتَابُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ، مَنْ رَاءَى بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ (٧ / ٢٨٥) (٣١٣٧)، وأحمد في المسند (١٤ / ٢٩)، (٨٢٧٧) باختلاف يسير.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه كِتَاب اللِّبَاسِ، بَابٌ فِي لُبْسِ الشُّهْرَةِ (٤ / ٤٣)(٤٠٢٩)، وابن ماجة في سننه كِتَاب اللِّبَاسِ باب من لبس شهرة من الثياب (٢ / ١١٩٢) (٩٥٦٠)، ، وأحمد في المسند (١٠ / ٣٦٣) (٥٦٦٤) واللفظ له، وقال الألباني: » وهذا إسناد حسن كما قال المنذري في «الترغيب» «٣ / ١١٢«، ورجال إسناده ثقات كما قال الشوكاني». جلباب المرأة المسلمة (١ / ٢١٣)..

(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي، (٩ / ١٧١).

(٤) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٢ / ٤٧٠).

تقديم الإخلاص وترك حظ النفس(١)، كما تجلى ذلك في موقف خالد بن الوليد رضي الله عنه حين عزل عن القيادة، فبقي ثابتًا على الجهاد دون تعلق بالمنصب، مدركًا أن الغاية نصرة الدين لا تحصيل الصيت. وهذه المواقف تبرز كيف يتحرر المؤمن من أسر المظاهر، ويجعل عمله لله لا للذات(٢).

وقد تواترت أقوال السلف في التحذير من الشهرة؛ فقال سفيان الثوري: ««إياك والشهرة؛ فما أتيت أحدًا إلا وقد نهى عن الشهرة»(٣)، وقال إبراهيم بن أدهم: «ما صدق اللهَ عبدٌ أحب الشهرة»(٤)، وكان ابن سيرين يترك بعض المجالس خشية أن يشتهر(٥)، ويعلق ابن خلدون على اضطراب موازين الشهرة فيقول إنها كثيرًا ما تنفصل عن حقيقتها، فتُعطى لغير أهلها أو تُمنع عمن يستحقها بسبب الأهواء وميل النفوس إلى الثناء(٦)، ومن ثم فليست الشهرة دليل فضل، كما أن الخفاء ليس علامة نقص، بل العبرة بصدق النية وصحة العمل.

وعليه: فلا ينبغي أن تجعل الشهرة غاية مقصودة، وإنما قد تأتي تبعًا للعمل الصالح، فإذا ابتلي بها العبد وجب عليه مجاهدة نفسه وصيانة قصده، وقد أشار الإمام أحمد إلى ثقلها بقوله: «أخمل ذِكرك، فإني قد بُليتُ بالشهرة»(٧)، ومن رزقه الله الخفاء مع صلاح العمل فذلك نعمة؛ إذ يعيش في سكينة بعيدًا عن آفات الرياء، مستغرقًا في مقام الإحسان. وخلاصة الأمر أن المقصود الأعظم أن يكون للعبد عمل خفي بينه وبين ربه يدخره ليوم القيامة، حيث تظهر حقائق القلوب، ويعلو قدر الإخلاص لا بريق الشهرة.

ومن رزقه الله الخفاء مع صلاح العمل، فذلك نعمة؛ إذ يعيش في طمأنينةٍ وحريةٍ بعيدًا عن رقابة الناس، مستغرقًا في مقام الإحسان: أن يعبد الله كأنه يراه. وعلى هذا، فليست الشهرة دليل فضل، ولا الخفاء علامة نقص، بل العبرة بأن يكون العبد حيث أمره الله، وأن يتجنّب ما نهاه

(١) البداية والنهاية، ابن كثير (٤ / ٢٧٢).
(٢) ينظر: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، (٧ / ١٦).
(٣) سير أعلام النبلاء: الذهبي (٧ / ٢٦٠).
(٤) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال ابن الجوزي (٣ / ٦١).
(٥) انظر: تاريخ دمشق: لابن عساكر (٥٣ / ٢٢٨).
(٦) انظر: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، (١ / ١٥٠).
(٧) سير أعلام النبلاء: الذهبي (١١ / ٢٢٦).

عنه، والمقصود الأعظم أن يكون للإنسان عمل خفيّ بينه وبين ربه، يدّخره ليوم الحاجة؛ يوم تنكشف الحقائق، وتتطاير الصحف، ويقف الناس بين يدي الله للفصل والجزاء، فحينئذٍ تظهر قيمة الإخلاص، لا بريق الشهرة.

المبحث الرابع: العمل والمعنى واستمراريتهما في جميع المراحل العمرية وأثرهما في مرحلة منتصف العمر، في ضوء حديث: «إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمُ الْفَسِيلَةُ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ».

وفيه:

المطلب الأول: فراغ المعنى وأثره في التحولات النفسية.

فراغ المعنى حالة يعاني منها الكثيرون، وهذا الإحساس هو حالة من انعدام المعنى الذي يحدث لدى الأفراد في فترات مختلفة من حياتهم، مثل فترة المراهقة، أو بعد التقاعد، أو في فترات الأزمة، ومن الممكن أن يتحول هذا الإحباط والفراغ إلى الكثير من الاضطرابات، وقد يؤدي إلى انحرافات سلوكية مثل الإدمان والانتحار(١).

إن زيادة أوقات الفراغ تُعد من النتائج المحتملة للتقدم التكنولوجي، حيث أفضت وسائل الراحة الحديثة إلى تقليل الجهد المبذول في كثير من شؤون الحياة. ويواكب ذلك تجدد الشكوى من ما يُعرف بالفراغ الوجودي، وهو شعور يتزايد حضوره في العصر الحديث، بخلاف المجتمعات السابقة التي كانت توفّر للأفراد معنىً للحياة من خلال منظوماتها القيمية وتقاليدها الراسخة. ومع تراجع تلك الأطر الموجِّهة، اتسعت الفجوة، وازداد وقت الفراغ حدّةً، مما أسهم في تنامي الشعور باللامعنى لدى بعض الأفراد(٢).

يعالج الإسلام فراغ المعنى بتحويل الحياة من مجرد وجودٍ عابر إلى رسالةٍ مقصودة وعبادةٍ شاملة، وذلك من خلال ما تقرره السنة النبوية من أصولٍ كليّة ومعانٍ جامعة تمتاز بالإيجاز والعمق والشمول، بما يجعلها صالحة لاستخراج القيم في مختلف الأزمنة والسياقات الحضارية، فالنص

(١) الخصائص السيكومترية لمقياس الفراغ الوجودي لدى عينة من الشباب الجامعي، قاسم، نادر فتحي ٢٠١٣ مجلة الارشاد النفسي، مصر، المجلد ١، العدد ٣٥ اغسطس، (ص ٦٥٩ - ٦٨٨).

(٢) الفراغ الوجودي وعلاقته بنمطي الشخصية (AB) لدى طلبة الجامعة، أحمد مهدي شهاب، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد ٢٩ العدد ٧، الجزء الأول. ص (ص ٤١٨ - ٤٤٦).

النبوي لا يقف عند حدود الوعظ المجرد، بل يؤسس لرؤيةٍ متكاملة تربط بين الإيمان والعمل، وتمنح الإنسان غايةً تتجاوز حدود المنفعة الآنية إلى عمارة الأرض وابتغاء مرضاة الله.

ويتجلى هذا المعنى بوضوح في حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تَقوم حتى يَغرِسَها، فليَغرِسْها»[1]، حيث يؤسس الحديث لمنظورٍ حضاريٍّ إيجابي يقوم على استدامة العمل وعدم الاستسلام للفراغ أو العبث، حتى في لحظات النهاية. فهو يقرر أن قيمة الفعل نابعة من مقصده، وأن المؤمن يظل فاعلًا ومنتجًا ما دام في العمر بقية، بما يعزز معاني الأمل والمسؤولية والاستخلاف، يقول الصنعاني معلقا على الحديث: « والحاصل أنه مبالغة وحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعلوم عند خالقها، فكما غرس غيرك ما شبعت به فاغرس لمن يجيء بعدك» [2]، ومن ثمّ: فإن هذا التوجيه النبوي يعيد بناء وعي الإنسان بوقته وحياته، ويحوّل الفراغ من مصدرٍ للضياع إلى مجالٍ للعطاء، في إطارٍ يعكس شمولية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان.

ومن هنا تتجلى أهمية التوجيه النبوي الذي يجسده حديث الفسيلة، إذ يؤسس لمبدأٍ عميق مفاده أن الفعل الإيجابي لا يتوقف على النتائج الزمنية أو الظروف المحيطة، وإنما يرتبط بقيمة العمل في ذاته واتصاله بالمعنى. فحتى في اللحظة التي ينقطع فيها الأمل الزمني، كما في قيام الساعة، يبقى العمل قائمًا بوصفه تعبيرًا عن الإيمان بالحياة والرسالة. ويكشف هذا الحديث عن معالجة نبوية دقيقة لفراغ المعنى، إذ يربط الإنسان بالفعل المستمر المنتج، ويمنعه من الاستسلام للفراغ أو العدمية، ويقرر أن القيمة لا تُقاس بطول الزمن أو كثرة النتائج، بل باستمرار العمل الصالح في ذاته. وبذلك يتحول الفعل إلى وسيلة لبناء التوازن النفسي، ومواجهة الاغتراب الداخلي، وإعادة تشكيل معنى الحياة في مختلف المراحل العمرية، ولا سيما في المراحل التي يشتد فيها الشعور بالفراغ كمنتصف العمر.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣ / ١٨٣، ١٨٤، ١٩١)، مسند الطيالسي ٢٠٦٨، البخاري في الأدب المفرد (١ / ١٦٨) رقم: (٤٧٩)، وصححه الألباني: انظر: صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (١ / ١٨١).

(٢) التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ: محمد بن إسماعيل الصنعاني، (٤ / ٢٤١).

وعليه، فإن الرؤية النبوية لا تقف عند حدّ تشخيص المشكلة، بل تمتد إلى بناء علاجٍ متكاملٍ سلوكيٍّ ومعنوي، يقوم على ترسيخ قيمة الاستمرار في العمل، وربط الإنسان بالمعنى الإيماني الذي يمنح حياته غاية ثابتة لا تتزعزع بتغير الأحوال أو تقلب المراحل. وقد أبدع المناوي في بيان هذا المعنى بقوله: «والحاصل أنه مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرةً إلى آخر أمدِها المحدود المعدود، المعلوم عند خالقها، فكما غرس لك غيرُك فانتفعتَ به، فاغرس لمن يجيء بعدك لينتفع، وإن لم يبقَ من الدنيا إلا صُبابةٌ، وذلك بهذا القصد لا يُنافي الزهدَ والتقلل من الدنيا»[1].

ويكشف هذا التوجيه النبوي عن أفقٍ حضاريٍّ واسع، يجعل من العمل قيمةً ممتدة تتجاوز لحظة الإنجاز إلى وظيفة الاستخلاف في الأرض، ويحرر الإنسان من أسر النتائج العاجلة، ليغرس فيه روح المبادرة والإيجابية حتى في أشد اللحظات إيذانًا بالانقضاء. فهو حديثٌ يعيد تعريف الفعل الإنساني لا بوصفه وسيلةً للنتائج، بل باعتباره عبادةً ممتدةً في ذاتها، وبذرةً مستمرة الأثر ما دام الإنسان حيًّا.

ومن هنا تتجلى دلالة الفاعلية في التصور النبوي، إذ تقوم على وعيٍ قصديٍّ بالأهداف وترتيب الأولويات، ثم الانطلاق في العمل وفق منهجٍ منضبطٍ يفضي إلى تحقيق أعظم قدرٍ من الإنجاز[2]، وفي هذا السياق يتأكد المعنى التربوي العميق بأن الإنسان لا يُراد له أن يعيش بلا وجهة، بل أن تكون حياته ذات مشروعٍ ممتد، وإلا كان وجوده زيادةً على الحياة لا زيادةً فيها، ويأتي هذا المعنى منسجمًا مع الأصل القرآني في دوام العمل إلى نهاية العمر: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، حيث يُفهم منه أن انقطاع الأمل الدنيوي لا يوقف حركة العبودية، بل يزيدها رسوخًا واستقامة، فيبقى المؤمن في حالة عبادةٍ ممتدةٍ ما دامت أنفاسه تتردد[3]، وفي هذا الحديث الشريف توجيه نبوي إلى أن تكون لحياة الانسان خارطة أهداف يعمل من أجل تحقيقها لا أن يخرج من الحياة كما دخلها، وقد قيل أن لم تكن زيادة في الحياة كنت زائدا عليها[4].

(١) فيض القدير: المناوي (٣ / ٣٠).
(٢) التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر، د. ماجد عرسان الكيلاني، (ص: ٢١).
(٣) ينظر: زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي (٢ / ٥٤٧).
(٤) وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي (٢ / ٦٨)

كما أن فراغ المعنى قد يدفع إلى اضطرابات سلوكية، كالتقلب في الأهداف، أو الانسحاب من المسؤوليات، أو البحث عن بدائل وهمية لتعويض هذا النقص، مما ينعكس سلبًا على الاستقرار النفسي والاجتماعي. وفي المقابل، فإن استحضار المعنى المستمد من الإيمان - كما يقرره الحديث - يُعيد توجيه العمل ليكون غاية في ذاته من حيث الامتثال والطاعة، لا مجرد وسيلة لنتائج عاجلة.

وعليه: فإن ملء الفراغ المعنوي يمثل ضرورة نفسية وتربوية، خاصة في منتصف العمر، حيث يتحول العمل من مجرد إنجاز خارجي إلى رسالة وجودية، تستمد قيمتها من اتصالها بالله تعالى، ومن استمراريتها مهما تغيرت الظروف أو قَلَّت النتائج. وبذلك يتحقق للإنسان قدرٌ من الاتزان النفسي، والثبات الداخلي، والإيجابية المستمرة في مختلف مراحل العمر.

المطلب الثاني: الاستمرار في العمل بوصفه علاجًا نبويًا.

يُقدِّم التوجيه النبوي في حديث: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة...» تصورًا علاجيًا عميقًا لحالات الفراغ والاضطراب النفسي، قائمًا على مبدأ الاستمرار في العمل بوصفه قيمةً في ذاته، لا مجرد وسيلة لنتائج مرجوة، فالحديث يُوجِّه إلى المبادرة بالفعل الإيجابي حتى في أقصى لحظات انقطاع الأمل الظاهري، مما يعكس تأسيسًا نبويًا لمنهجٍ علاجي يعالج القلق واليأس بإحياء روح الفعل والإنجاز، ويقوم هذا العلاج على إعادة بناء العلاقة بين الإنسان والعمل؛ إذ يتحول العمل من كونه استجابةً لظروف خارجية إلى كونه تعبيرًا عن معنى داخلي مرتبط بالعبودية لله تعالى، ومن ثمّ: فإن الاستمرار في العمل يُسهم في حفظ التوازن النفسي، ويمنع الانهيار الناتج عن الشعور باللاجدوى أو فقدان الغاية، خاصة في المراحل العمرية الحرجة كمنتصف العمر.

إن المؤمن إذا سمع قول الرسول ﷺ: "إذا قامت القيامة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن يغرسها قبل أن تقوم القيامة فليغرسها"، لا يسعه إلا أن يواصل العمل ليل نهار، ويبذل جهده صباح مساء وكيف لا ونتيجة هذا السعي ستعرض على الله، وثمار هذا البذل ستكون في كفة حسناته يوم يلقى الله ؟ وكيف لا والأمر الرباني الكريم يلاحقه في كل حين ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[التوبة: ١٠٥][١]، فالعمل في التصور الإسلامي قيمةٌ كبرى وضرورةٌ حياتية لا غنى عنها، فهو أساس عمارة الأرض، وركنٌ من أركان استقامة الحياة الإنسانية. ومن هنا جاء التأكيد النبوي على أهمية العمل، ورفع منزلته، وربطه بالكرامة والاستغناء، حتى صار معيارًا عمليًا لقيمة الإنسان في مجتمعه.

وقد جسّد النبي ﷺ هذا المعنى في سيرته، فكان يعمل كما عمل الأنبياء والمرسلون من قبله، وحثّ أمته على الكسب الحلال والعمل المنتج، ومن ذلك ما رواه المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده"[٢]، وهو حديث يؤسس لمبدأ الاعتماد على النفس، وفضل الكسب الشريف.

ويُبرز هذا التوجيه أن العمل ليس مجرد وسيلة للمعاش، بل هو عبادةٌ وسلوكٌ حضاري، يحقق للإنسان الكرامة، ويمنحه شعورًا بالجدوى والانتماء، ويُسهم في بناء المجتمع القوي القادر على الإنتاج والعطاء، قال الطيبي: "فيه تحريض علي الكسب الحلال، فإنه متضمن فوائد كثيرة، منها: إيصال النفع إلي المكتسب بأخذ الأجرة إن كان العمل لغيره وبحصول الزيادة علي رأس المال إن كان العمل تجارة. ومنها: إيصال النفع إلي الناس بتهيئة أسبابهم، من نحو غسل ثيابهم وخياطتها ونحوهما مما يحصل بالسعي كغرس الأشجار وزرع الأقوات والثمار. ومنها: أن يشتغل الكاسب به فيسلم عن البطالة واللهو ومنها: كسر النفس به، فيقتل طغيانها ومرحها. ومنها: أن يتعفف عن ذلة السؤال والاحتياج إلى الغير. وشرط المكتسب أن لا يعتقد الرزق من الكسب، بل من الله الكريم الرزاق ذي القوة المتين [٣].

ومنها حديث الزبير بن العوام - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: " لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة الحطب على ظهره، فيبيعها، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"[٤]، فهذا فيه حث على العمل والتعفف عن المسألة والتنزه عنها، وتفضيل الكسب

(١) التطور العلمي والفكري في مفهوم الإسلام، عبد الله بن عبد الله الزايد، ، (٢٤ / ٢٧٧) .
(٢) أخرجه البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، (٣ / ٥٧)، (رقم، ٢٠٧٢).
(٣) الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح)، الطيبي، (٧ / ٢٠ ٩٥) .
(٤) أخرجه البخاري، في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة، (٢ / ١٢٣)(١٤٧١).

والسبب على البطالة ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشاق في ذلك [1].

وعليه: فإن الاستمرار في العمل في المنظور النبوي ليس مجرد سلوكٍ أخلاقي، بل هو منهج علاجي متكامل، يُواجه به الإنسان حالات الإحباط والفراغ، ويُعيد من خلاله بناء توازنه النفسي، واتصاله بالمعنى، واستمراريته في العطاء، وقد تمثل الصحابة - رضوان الله عليهم - هذا التوجيه النبوي وطبقوه على أنفسهم، وتواصوا به بينهم، فكان لنا فيهم خير قدوة؛ فهذا عمر - رضي الله عنه - يصدر تعميماً للصحابة - رضي الله عنهم يصحح فيه مفهوما خاطئا انتشر عند بعضهم، وهو التوقف عن العمل والإنتاج، استشعارا لقرب الموت وقيام الساعة، على اعتبار أن من مات فقد قامت قيامته، عن حَنَسُ بْنُ الْحَارِثِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا تَنْتَجُ فَرَسَهُ فَيَنْحَرُهَا فَيَقُولُ: «أَنَا أَعِيشُ حَتَّى أَرْكَبَ هَذَا ؟ فَجَاءَنَا كِتَابُ عُمَرَ: أَنْ أَصْلِحُوا مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ، فَإِنَّ فِي الْأَمْرِ تَنَفُّسًا»[2].

ولم يكتف عمر - رضي الله عنه - بالتوجيهات القولية أو الكتابية في حث الناس على الغرس والزراعة - وإن كانوا في أواخر أعمارهم - بل عزز ذلك بفعله أيضا؛ فعن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: «سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي: أعزم عليك أن تغرس أرضك فقال أبي: أنا شيخ كبير أموت غدا. فقال عمر: أعزم عليك لتغرسنها، فلقد رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يغرسها بيده مع أبي»[3].

وبذلك: يتضح بأن حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: «إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها» يعد من أقوى الأدلة على تقدير الإسلام لاستثمار الأرض واستغلال الموارد والأشياء في ما يحقق الخير، بما يتوافق مع حاجات الإنسان وغاياته في الحياة، فعندما يزهد الإسلام في الدنيا في بعض الآيات ويصفها ب «متاع الغرور»، فإنه يهدف إلى توجيه الإنسان ليظل هو القائد والمسيطر على الأشياء، لا أن يصبح عبداً لها، كما هو الحال مع الإنسان المعاصر الذي أصبحت التكنولوجيا توجهه وتقوده إلى المجهول، وبالتالي تحتل العلاقة المتوازنة بين الإنسان والفكر والأشياء، وينشأ عن ذلك انهيار في السيطرة والتوجيه مما يؤدي إلى فقدان

(١) فيض القدير: المناوي (٥ / ٢٥٧)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، الصديقي، (٤ / ٥٢٤).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد، (١ / ٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري (١ / ١٨١)

(٣) الجامع الكبير للسيوطي (٣ / ٣٣٧)، انظر السلسلة الصحيحة، للألباني (١ / ٣٩).

الإنسان لموقعه السليم في إدارة حياته و موارده[1].

والدين الإسلامي يتميّز بتحقيق التوازن الدقيق بين الزهد في الدنيا وعمارة الأرض؛ فهو من جهةٍ يوجّه الإنسان إلى التطلّع إلى الآخرة والاستعداد لها، ومن جهةٍ أخرى يحثّه على العمل والإنتاج والسعي في إصلاح الكون. ومن ثمّ جعل الإسلام الأعمال العمرانية – كغرس الأشجار، وحفر الآبار، وإحياء الأرض – من جملة الأعمال الصالحة التي يُثاب عليها المسلم، بما يعكس شمولية هذا الدين وواقعيته فالتوازن والاعتدال والوسطية من أبرز خصائص الدين الإسلامي، فهو يوازن ويجمع بين متطلبات الرُّوح، ومتطلبات الحياة؛ يقول الشيخ السعدي - رحمه الله -: «إن هذه الشريعة جاءت بإصلاح الدِّين وإصلاح الدُّنيا، والجمع بين مصلحة الرُّوح والجسد، وهذا الأصل في الكتاب والسُّنَّة منه شيء كثير، يحثُّ الله ورسولُه على القيام بالأمرين، وأن كل واحد منهما ممد للآخر، ومعين عليه، والله تعالى خلق الخلق لعبادته، والقيام بحقوقه، وأدرَّ عليهم الأرزاق، ونوَّع لهم أسباب الرزق وطرق المعيشة، وليستعينوا بذلك على عبادته، وليكون ذلك قيامًا لداخليتهم وخارجيتهم، ولم يأمر بتغذية الروح وحدها وإهمال الجسد، كما أنه نهى عن الاشتغال باللذات والشهوات، وتقوية مصالح القلب والروح» [2] .

فالإسلام يمزُج في تعاليمه – سواء أكانت قرآنًا أم سُنَّة – بين دعوته إلى تحقيق مصالح الدين، وتحقيق مصالح الدنيا، ويجعل هاتين المصلحتين متلازمتين لزوم الروح للجسد، غير أنه وضع ضوابط لطلب الدنيا، تتلخص هذه الضوابط في طلبها لغايات سامية نبيلة، منها: أن يصون الإنسان نفسه عن الحاجة، وينأى بنفسه عن المسألة، ويوفر لعياله ما يحتاجون إليه، ويتوفر عنده ما يمكِّن مِن مَدِّ يد العون والمساعدة إلى من كان في حاجة إلى معونته ومساعدته، وأن يكون طلبها من طريق حلال مشروع، وألا يكون للتفاخر والتكاثر فحسب، فإن توافرت تلك الضوابط كان طلب الدنيا حينئذ عبادة يثاب عليها المرء أحسن مثوبة عند الله عز وجل، أما إن كان طلب الدنيا لا لهذه الغايات السامية النبيلة، بل كان للتكاثر والتفاخر ضاربًا عُرض الحائط بهذه الغايات التي حثَّ عليها الإسلام، كان هذا تكالبًا مَمقوتًا، يُعاقَب فاعلُه أشدَّ العقاب في نار جهنم يوم القيامة؛ قال صلى الله عليه وسلم: «وَمَنْ طَلَبَ الدنْيَا حَلالًا مُفَاخِرًا، مُكَاثِرًا، مُرَائِيًا،

(١) الظاهرة الحضارية في القرآن والسنة، عبد الحليم عويس مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٢١)، (ص: ١٧٠).
(٢) الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، (ص ٢١).

لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» (١)، وقال رونالد فيكتور بودلي - في بيان أنها شريعة تجمع الديني والدنيوي معًا من غير فصلٍ أو تفريق، وترعى العباد في دنياهم وأخراهم -: «لقد كان محمد على نقيض من سبق من الأنبياء؛ فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشاكلها، فلم يُغْفِل الناحية العلمية الدنيوية في دينه، فَوَفَّقَ بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملي، لقد شبَّه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إلهٌ، وأن الجنة نهاية المطاف» (٢) .

وعلى هذا الأساس، تتجلى الرؤية النبوية في الجمع بين عبادة الله وعمارة الحياة، حيث لا ينفصل الذكر عن العمل، ولا تنعزل الروح عن الحركة في الواقع، بل ينهض الإسلام على مبدأ التكامل بين التعبد والبناء، في انسجامٍ يرفض الرهبانية والانقطاع عن شؤون الدنيا.

وتظهر هذه الحقيقة بجلاء في التوجيه النبوي الجامع الذي يؤكد استمرارية الفعل الإيجابي إلى آخر لحظة من العمر، حتى في أشد الظروف وأعظمها كقيام الساعة؛ إذ يقول النبي ﷺ: «إِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَلَّا تَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»(٣)، وهو توجيه بليغ يرسخ قيمة العمل بوصفه معنىً ممتدًا للحياة، ويقرر أن عمارة الأرض ليست مرتبطة بالظروف أو النتائج، بل هي مقصد شرعي دائم، يُبقي الإنسان في حالة فاعلية وإيجابية حتى آخر لحظة من وجوده.

(١) الحديث في مسند إسحاق بن راهويه: (١ / ٣٥٣)، وفي المنتخب من مسند عبد بن حميد (١ / ٤١٨).
(٢) نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي / بقلم عزالدين فراج (ص ٦٦).
(٣) سبق تخريجه.

الخاتمة

النتائج والتوصيات .

أولاً: النتائج:

١. أظهرت الدراسة أن السنة النبوية تعالج التحولات النفسية في منتصف العمر بإعادة بناء معيار القيمة الإنسانية على القلب والعمل، لا على الصورة أو العمر أو المكانة الاجتماعية.

٢. بيّنت الدراسة أن التقدم في العمر لا يُعد في التصور النبوي نقصًا مطلقًا، بل يكون مجالًا للزيادة والرفعة متى اقترن بحسن العمل.

٣. كشفت الدراسة أن من أبرز أسباب الاضطراب النفسي في هذه المرحلة تعلّق الإنسان بنظر الناس وتقديرهم، وقد ضبطت السنة ذلك بتربية القلب على الإخلاص والتحذير من الرياء والسمعة.

٤. أكدت الدراسة أن العمل الصالح واستمرار العطاء يمثلان علاجًا نبويًا لفراغ المعنى، ولا سيما في المراحل التي يراجع فيها الإنسان حصيلة عمره وإنجازاته.

٥. خلصت الدراسة إلى أن المنهج النبوي يحقق التوازن النفسي في منتصف العمر من خلال الجمع بين تصحيح التصور، وتهذيب النية، واستثمار العمر، واستدامة العمل.

ثانياً: التوصيات:

١. العناية بالدراسات الحديثية الموضوعية التي تربط النصوص النبوية بالقضايا النفسية المعاصرة ربطًا منضبطًا بعيدًا عن الإسقاط المتكلف.

٢. توجيه الخطاب التربوي والدعوي إلى تصحيح المفاهيم المرتبطة بالعمر والقيمة والإنجاز في ضوء السنة النبوية.

٣. إبراز الهدي النبوي في معالجة فراغ المعنى، والقلق من التقدم في العمر، والتعلق بنظر الناس.

٤. الإفادة من النصوص الحديثية الجامعة في بناء برامج تربوية وإرشادية تعين على تحقيق التوازن النفسي في المراحل العمرية المختلفة.

المصادر والمراجع

١. الأدب المفرد، للإمام أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، ت ٢٥٦هـ، تحقيق / محمد عبدالقادر عطا، ط دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: علي شيري، ١٤٠٨هـ، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى .
٣. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، المحقق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة - عام النشر: ج ١، ٢، ٣: ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م - ج ٤، ٥: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م - ج ٦: ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.
٤. تاج العروس من جواهر القاموس: المرتضى الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين من منشورات دار الهداية.
٥. تاريخ مدينة دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، ١٤١٥هـ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
٦. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى: لأبى العلا محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى ت ١٣٥٣ ط دار الكتب العلمية بيروت.
٧. التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر، د. ماجد عرسان الكيلاني، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي الإمارات العربية المتحدة، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م
٨. التطور العلمي والفكري في مفهوم الإسلام، عبد الله بن عبد الله الزايد، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، (٢٤ / ٢٧٧) .
٩. التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه وشاذه من محفوظه، أصلها للإمام محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبد التميمي، أبو حاتم الدارمي البُستي (ت ٣٥٤هـ)، وقد قام بترتيبه الأمير أبو الحسن علي بن بلبان بن عبد الله علاء الدين الفارسي الحنفي (ت ٧٣٩هـ). وتأتي التعليقات الحسان بوصفها عملًا علميًا للعلامة محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، حيث عني فيها بالتعليق على الكتاب

وبيان درجته الحديثية من حيث الصحة والسقم، وتمييز الصحيح من الضعيف والشاذ من المحفوظ. وقد صدرت عن دار با وزير للنشر والتوزيع بجدة – المملكة العربية السعودية، في طبعتها الأولى عام ١٤٢٤هـ الموافق ٢٠٠٣م.

١٠. تفسير القرآن العظيم، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)، يُعد من أشهر كتب التفسير بالمأثور، وقد قام بتحقيقه سامي بن محمد سلامة. صدر عن دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ الموافق ١٩٩٩م.

١١. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، من تأليف د. وهبة بن مصطفى الزحيلي، ويُعد من التفاسير المعاصرة التي تجمع بين التفسير التحليلي والبيان المقاصدي لأحكام العقيدة والشريعة والمنهج. وقد صدر عن دار الفكر المعاصر بدمشق، في طبعته الثانية عام ١٤١٨هـ.

١٢. التَّنويرُ شَرْحُ الجَامِع الصَّغِيرِ: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، المحقق: د. محمَّد إسحاق محمَّد إبراهيم، الناشر: مكتبة دار السلام، الرياض - الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

١٣. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد: سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المحقق: زهير الشاويش [ت ١٤٣٤ هـ]، الناشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق - الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م

١٤. الجامع الكبير، جمع الجوامع، للسيوطي، المتوفى سنة ٩١١ هـ. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٥. جلباب المرأة المسلمة، من تأليف الشيخ أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، وهو من الكتب التي تناولت أحكام لباس المرأة في ضوء الأدلة الشرعية. وقد صدر عن دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ الموافق ٢٠٠٢م.

١٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، السعادة، مصر (بجوار محافظة مصر)، وصُوِّرَتْهُ عدة دور منها: دار الكتاب العربي، ودار الفكر للطباعة

والنشر والتوزيع، ودار الكتب العلمية، بيروت.
١٧. الخصائص السيكومترية لمقياس الفراغ الوجودي لدى عينة من الشباب الجامعي، قاسم، نادر فتحي ٢٠١٣ مجلة الارشاد النفسي، مصر، المجلد ١، العدد ٣٥ اغسطس.
١٨. الدرة المختصرة في محاسن الدين الإسلامي: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي، طبع ونشر، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والافتاء - الادارة العامة لمراجعة المطبوعات الدينية، الرياض المملكة العربية السعودية - ١٤٣٢ - ٢٠١١.
١٩. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، الصديقي، بدون .
٢٠. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، (١٤٠١هـ)، دار الفكر، بيروت.
٢١. زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ت ٥٩٧هـ المحقق: عبد الرزاق المهدي دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٢٢. سبل السلام: محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير، الناشر: دار الحديث .
٢٣. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف - الرياض، الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٢٤. سنن ابن ماجه: لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى ت٢٧٥ ط دار الفكر بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.
٢٥. سنن أبى داود لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى ت٢٧٥ ط دار الفكر تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.
٢٦. سنن الترمذى لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى السلمى ت٢٧٩ ط دار إحياء التراث بيروت تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.
٢٧. السنن الكبرى لأبى عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى ت ٣٠٣ ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١م تحقيق د / عبد الغفار سليمان البندارى وسيد كسروى حسن.

٢٨. سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، ١٤٢٧هـ، دار الحديث، القاهرة.
٢٩. شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية: تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، الناشر: مؤسسة الريان - الطبعة: السادسة ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م (١ / ١٢٠).
٣٠. شرح السنة: البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشاويش المكتب الإسلامي دمشق بيروت (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م) .
٣١. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح للإمام الكبير شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، تحقيق د / عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباني - الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م ٠
٣٢. شرح رياض الصالحين: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض - الطبعة: ١٤٢٦ هـ.
٣٣. صحيح ابن حبان لأبى حاتم محمد بن حبان أحمد التميمى البستى - ط مؤسسة الرسالة بيروت الطبيعة الثانية ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م تحقيق شعيب الأرنؤوط.
٣٤. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ١٤١٨هـ، دار الصديق للنشر والتوزيع.
٣٥. صحيح البخارى لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى الجعفى - ط دار ابن كثير اليمامة بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م تحقيق د / مصطفى ديب البغا
٣٦. صحيح الجامع الصغير وزياداته: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي
٣٧. صحيح مسلم لأبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى - ط دار إحياء التراث بيروت تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى.
٣٨. ضعيف أبي داود: محمد ناصر الدين الألباني، دار النشر: مؤسسة غراس للنشر و التوزيع – الكويت - الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ(٢ / ١٤٩).
٣٩. ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الثالثة، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٠. الظاهرة الحضارية في القرآن والسنة، عبد الحليم عويس مجلة البحوث الإسلامية، العدد (٢١) .
٤١. عمدة القاري شرح صحيح البخاري: أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بدر الدين العينى، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٤٢. عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير العظيم آبادي، ١٤١٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت
٤٣. غرس القيم وتنميتها في السنة النبوية باستخدام طريقة حل المشكلات، الحنبرجي، محمد عبد الكريم محمد صابر، ٢٠١٧م، مجلة دراسات: علوم الشريعة والقانون، المجلد ٤٤، العدد ٣، الجامعة الأردنية، عمادة البحث العلمي، الأردن
٤٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب - عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز
٤٥. الفتح المبين لشرح الأربعين لأحمد بن حجر الهيتمي ص العربية عيسى البابي الحلبي - ط / دار إحياء الكتب.
٤٦. الفراغ الوجودي وعلاقته بنمطي الشخصية (AB) لدى طلبة الجامعة، أحمد مهدي شهاب، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، المجلد ٢٩ العدد ٧، الجزء الأول.
٤٧. فيض القدير: لعبد الرؤوف المناوى ط المكتبة التجارية مصر الطبعة الأولى ١٣٥٦هـ
٤٨. القاموس المحيط: الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان ١٤٢٦٨هـ - ٢٠٠٥م).
٤٩. القيم الإسلامية والتربوية: علي أبو العينين، مكتبة إبراهيم حلبي، المدينة المنورة (١٩٨٨م).
٥٠. القيم التربوية المتضمنة في آيات النداء القرآني للمؤمنين وسبل توظيفها في التعليم المدرسي رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية التربية الجامعة الإسلامية غزة: سماهر الأسطل، (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م) .

٥١. القيم المستنبطة من قصص الأنبياء في القرآن الكريم: الشريف كوثر محمد رضا، ١٤٢٥هـ، جامعة أم القرى.
٥٢. القيم بين الإسلام والغرب: مانع بن محمد بن علي المانع، ط١، النشر: دار الفضيلة الرياض.
٥٣. الكاشف عن حقائق السنن (شرح الطيبي على مشكاة المصابيح)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ١٤١٧هـ، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة - الرياض
٥٤. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، ابن أبي شيبة، تحقيق كمال يوسف الجوت مكتبة الرشد، الرياض (١٤٠٩هـ).
٥٥. الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري: أحمد بن إسماعيل بن عثمان بن محمد الكوراني الشافعي، المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت –لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٥٦. لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير محمد أحمد حسب الله هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة: (٥ / ٣٧٨٢).
٥٧. مباحث العقيدة في سورة الزمر: ناصر بن علي عايض حسن الشيخ، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م
٥٨. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ١٤١٦هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية.
٥٩. مُخْتَصَرُ مِنْهَاجِ القَاصِدِينْ: نجم الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتَبَةُ دَارِ البَيَانْ، دمشق - عام النشر: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م
٦٠. المدخل إلى القيم الإسلامية: جابر قمحية، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٨٤، ص٤١. [١٨].
٦١. المذهبية الإسلامية والتغير الحضاري، د / محسن عبد الحميد، دار الوفاء، مصر.
٦٢. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين

الملا الهروي القاري، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان - الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٦٣. المستدرك على الصحيحين لأبى عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابورى، ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.
٦٤. مسند أبى يعلى: لأبى يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى التميمى ت٣٠٧ ط دار المأمون للتراث دمشق الطبعة الأولى ١٤٠٤ - ١٩٨٤ تحقيق حسن سليمان أسد.
٦٥. مسند الإمام أحمد بن حنبل: لأبى عبد الله أحمد بن حنبل الشيبانى ت٢٤١، ط مؤسسة الرسالة بيروت تحقيق شعيب الارناؤوط وآخرون.
٦٦. مسند إسحاق بن راهويه: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف ب ابن راهويه المحقق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، الناشر: مكتبة الإيمان - المدينة المنورة - الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ – ١٩٩١م .
٦٧. مشارق الأنوار الوهاجة ومطالع الأسرار البهاجة في شرح سنن الإمام ابن ماجه: محمد بن علي بن آدم بن موسى، الناشر: دار المغني، الرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م
٦٨. مصالح الأبدان والأنفس: أبو زيد البلخي، ، تحقيق: محمود مصري، القاهرة معهد المخطوطات العربية، ط١، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م .
٦٩. المصنف، عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي المكتب الإسلامي، بيروت (٢ - ١٤٠٣هـ).
٧٠. معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي: الدكتور أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل - الناشر: عالم الكتب، القاهرة - الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
٧١. معجم ألفاظ القيم الأخلاقية وتطورها الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم: د. نوال كريم زرزور، مكتبة لبنان ناشرون (٢٠٠١م)
٧٢. معجم اللغة العربية المعاصرة: د أحمد مختار عبد الحميد عمر بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م
٧٣. المنتخب من مسند عبد بن حميد: أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي ويقال له: الكَشّي بالفتح والإعجام، المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد

خليل الصعيدي، الناشر: مكتبة السنة – القاهرة - الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ – ١٩٨٨

٧٤. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، ١٤١٢هـ، دار الكتب العلمية، بيروت .

٧٥. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت - الطبعة: الثانية، ١٣٩٢

٧٦. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ات: بعد ١١٥٨هـ)، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني الناشر: مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ط ١ - ١٩٩٦م.

٧٧. موسوعة نضرة النعيم في مكارم واخلاق الرسول الكريم: صالح حميد عبد الله عبد الرحمن ملوح، ١٤٢٤هـ، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.

٧٨. نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي / بقلم عزالدين فراج · القاهرة: مطبعة دار الجهاد، ١٩٥٣م .

٧٩. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، ١٣٩٩هـ، المكتبة العلمية، بيروت.

٨٠. وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي (ت: ١٩٣٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط / ٣، ٢٠١١م.